رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

آداب طالب العلم

بقلم
أبي عبد الله محمد بن سعيد بن رسلان

دار ابن حزم

آداب طالب العلم

بسم الله الرحمن الرحيم

آداب طالب العلم

بقلم
أبي عبد الله محمد بن سعيد بن رسلان

دار ابن حزم

طبعة دار ابن حزم الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

دار ابن حزم

للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص. ب: ١٤/٦٣٦٦

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

اللَّهمَّ صلِّي على محمَّدٍ النبيِّ الأميِّ وأزواجِهِ أمَّهاتِ المؤمنين وذريته وآل بيتـه، كما صلّيتَ على إبراهيم وعلى آلِ إبراهيم، إنَّك حميدٌ مجيدٌ.

وبعد: فهذه بحولِ اللهِ وقوتِهِ لا حولَ ولا قوةَ إلاَّ

به - هي الطبعة الثانية من كتابِ «آداب طالب العلم»، وقد شاء اللَّهُ تعالى أن تأتي والأمَّة تمرُّ بأزمةٍ خانقةٍ، لم تشهد لها مثيلاً من قبل، لأن الأزماتِ التي تعاقبت على الأمَّة فيما غَبَرَ من السنين كانت تنحسرُ على صخرةِ تمسك الأمةِ بحبل الإمامةِ واليقين، أمَّا اليوم: فشتاتٌ من شتاتٍ، وسرابٌ في سرابٍ، وصباحٌ لا يبين.

نعم، تأتي هذه الطبعةُ وقد تداعت على الأمَّةِ الأكَلَةُ من كلِّ صوبٍ، واجتالت شياطينُ الإنسِ والجنِّ أبناءَ الأمَّةِ بما زَخْرَفُوا لهم من معسول القولِ، وزَيَّنوا لهم من باطلِ العملِ، وفَقَدَ الأبناء من خيرِ أمَّةٍ ما هم به خيرُ أمَّةٍ، وهو الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ، والإيمانُ باللَّهِ العظيم.

هذا واقعٌ أليمٌ لا ريبَ في ذاك ولا شكَّ فيه، وقد يسألُ سائلٌ: وما قيمةُ أن يتعلّمَ المسلمُ آداب طلبِ العلمِ في هذا الواقِعِ الأليِمِ؟!

وهذا سؤالٌ وجيهٌ لو لم يحمل في طيَّاتِه براهينَ

الفقدِ الواضحِ للتشخيصِ الصحيح لأدواءِ الأمّةِ وأمراضِها.

وما تخرجُ أدواءُ الأمّةِ عن ثلاثةٍ: عملٌ كثيرٌ من غير علمٍ، أو علمٌ كثيرٌ من غير عملٍ، أو لا علمَ ولا عملَ.

ثم إن شئتَ فاجمع هذه الأدواءَ الثلاثة في داءٍ واحدٍ وهو فَقْدُ ضَبْطِ النسبةِ بين العلمِ والعملِ، أو بين الوسيلةِ والغايةِ إن شئتَ الوصولَ إلى عين اليقين.

يا إخوتاه في كلِّ دربٍ: إنّه لن يصلُحَ آخرُ هذه الأمّةِ إلّا بما صلحَ به أوّلُها، وإنّما بدأ هذا الأمرُ بقولِهِ تعالى: ﴿ٱقْرَأْ﴾، وبقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾، والإنذارُ لا يكون بالجهل ولا بالباطل، بل بالعلمِ واليقين.

وأعرفُ ما يقولُ المعترضون، يقولون: تشغلون الأمّةَ بالفروعِ!! ونقولُ: لا أيها الأحبّةُ: بل نميّزُ بين

العلمِ الفرض، الذي هو واجبٌ على التعيينِ على كلِّ مسلمٍ، وما هو علمُ كفايةٍ متى قامَ به رجلٌ في مَحِلَّةٍ، سقطَ فرضُ طَلَبِهِ عن مَنْ فيها من المسلمين.

إنَّما نريدُ أن تعلمَ الأمَّةُ علمَ الفرضِ الذي يلزمُ أفرادَها أجمعين، مِنْ معرفةِ اللَّهِ والنبيِّ ﷺ، ومعرفةِ ما تلزمُ معرفتُهُ من أمرِ الدنيا والدين.

كل ذلك من أجلِ أن تُبْعَثَ الأمَّةُ على مقوماتٍ لا تقومُ الأممُ على الإجمالِ إلَّا على أمثالِهَا، ومقوماتٍ تلزمُ أمَّةَ الإسلامِ على وجهِ الخصوص؛ من توحيدٍ كاملٍ، ويقين شاملٍ، ولغةٍ هي عند المسلمين من الدين، ومَخْبَرٍ يَسُرُّ، وظاهرٍ مُنِيرٍ من غير هُمودٍ، ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾.

إن كثيراً من الأمورِ العظيمة تفسدُ من أجلِ اليسيرِ من الأمورِ، وإنَّ العلمَ الذي هو أولُ ما يُعْقَدُ عليه العنصرُ في الدِّينِ واليقينِ، ليفسدُهُ اضطرابُ التلقِّي لِفَقْدِ الآداب من الشُّدَاةِ والمتعلِّمين.

وما كنَّا نظنُّ أن يأتيَ على النَّاس زمانٌ يمدحون فيه الجهلَ، ويذمُّون العلمَ، بل كان مثلُ ذلك اليوم عندنا بمثابةِ اليوم الذي يَذْكُرُ النَّاسُ فيه إبليسَ، فيقولون: رضي الله عنه.

يا إخوتاه في كلِّ دربٍ.. دونكم دعاءَ النبيِّ ﷺ في قيام الليل: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيْكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تحْكُمُ بَيْنَ عبادِكَ فِيْمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ: اهْدِني لِمَا اختُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**».

والله المسؤول أن يهدينا جميعاً إلى سواءِ السَّبيل...

وكتب
أبو عبدالله
محمد بن سعيد بن رسلان

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله مِنْ شرورِ أنفسنا وسيِّئاتِ أعمالنا، مَنْ يهده اللَّهُ فلا مُضِلَّ له، ومنْ يضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّهُ، وحده لا شريكَ له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أمَّا بعد:

فـإنَّ أصدقَ الحـديثِ كتابُ اللَّهِ، وخيـرَ الهـدي هديُ محمدٍ صلّى الله عليه وآله وسلّم، وشـرَّ الأمورِ مُحدثَاتُها، وكلَّ مُحْدَثَةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّارِ.

ثُمَّ أمَّا بعد:

فلمَّا كان العلمُ هو عبادةُ القلبِ، وسـرُّ حياتـه، ومَوْطِنُ قوَّتِهِ، كان لِزاماً على طالبه أن يُحصِّل آدابه، وأن يسعى جاهداً مُشمِّراً في اكتسابها، وإلاَّ سار مُشرِّقاً وسار العلمُ مُغرِّباً، وكان كما قيل:

سَارَتْ مُشَرِّقَـةً وَسِرْتُ مُغَـرِّباً
شَتَّـانَ بَيْـنَ مُشَـرِّقٍ وَمُغَـرِّبِ

على أنَّه ينبغي التَّفَطُّنُ إلى أنَّ هذه الآداب، ليست آداباً كأيِّ آداب، تُحَصَّلُ أو لا تُحَصَّلُ والأمرُ من قبلُ ومن بعدُ سواء، بل منها ما هو واجبٌ على كلِّ أحدٍ في كلِّ حين، سواء كان طالباً للعلم أم لم يكن.

والعلمُ الشرعيُّ غايتُه البيانُ والتبليغُ وتوحيدُ اللَّهِ وعبادتُهُ غايةُ البيانِ والتبليغِ، فالغايةُ من العلم ـ إذن ـ هي توحيدُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ وعبادتُه.

وأحرى بِمَنْ نصَّبَ نَفْسهُ للعلم وتصدَّى له ـ متعلِّماً أو معلِّماً ـ أن يظهر عليه أثرُ التوحيدِ والعبادةِ، بالتسليمِ الكاملِ للشرعِ الأغرِّ والخضوعِ المطلقِ للدينِ الأعزِّ.

وعليه فآدابُ الطَّلَبِ لا تنفكُّ عن أصحاب العلمِ أبداً؛ لأنَّها ممَّا دلَّتْ عليه النصوصُ وأرشدتْ إليه، ولأنَّ منها ما هو من الكلِّياتِ العامَّةِ والقواعِد الشاملِة في

الدين، لَا يَسَعُ أحـداً أن يخرجَ عليهـا، أو أن ينظرَ إليهـا بغير عين الاعتبار، وهي - أي: آدابُ الطلبِ - في كلٍّ الأحوالِ في حقِّ طالبِ العلمِ آكَدُ وعليه أوْجَبُ، واللَّهُ المستعان وعليه التكلان.

وهذه جملةٌ ما يلزمُ طالبَ العلم من آدابٍ:

١

إخلاصُ النِّيَّةِ للَّهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ

قال الغَزَّالِيّ ـ هو أبو حامدٍ ـ رحمه الله تعالى: «اعلم أنَّ النِّيَّةَ والإرادةَ والقصدَ عباراتٌ متواردةٌ على معنىً واحدٍ، وهو حالةٌ وصِفَةٌ للقلبِ يكتنفها أمران: علمٌ وعملٌ.

العلمُ يَقْدُمُهُ؛ لأنَّه أصلُهُ وشرطُهُ، والعملُ يتبعه؛ لأنَّه ثمرتُهُ وفرعُهُ. وذلك لأنَّ كلَّ عملٍ ـ أعني كلَّ حركةٍ وسكونٍ اختياريٍّ ـ فإنَّه لا يتمُّ إلَّا بثلاثة أمورٍ: علم، وإرادة، وقدرة؛ لأنَّه لا يريد الإنسانُ ما لا يعلمه، فلا بُدَّ وأنْ يعلم، ولا يعملُ ما لم يُرِدْ، فلا بُدَّ من إرادة.

ومعنى الإرادةِ انبعاثُ القلبِ إلى ما يراه موافقاً للغرض ـ إما في الحالِ أو في المآلِ ـ فقد خُلِق

الإنسانُ بحيث يوافقه بعضُ الأمورِ ويلائم غرضَه، ويخالفه بعضُ الأمورِ، فيحتاج إلى جَلبِ الموافقِ الملائِم إلى نفسه، ودفعِ الضَّارِّ المنافي عن نفسه، فافتقر بالضرورةِ إلى معرفةٍ وإدراكٍ للشيء المضِرِّ والنافع، حتى يجلبَ هذا ويهربَ من هذا؛ فإنَّ مَنْ لا يُبصرُ الغذاءَ ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناوله، وَمَنْ لا يُبصرُ النَّارَ لا يمكنه الهرب منها، فخلقَ اللَّهُ الهدايةَ والمعرفةَ وجعلَ لها أسباباً، وهي الحواسُّ الظاهرةُ والباطنةُ.

فالنِّيَّةُ عبارةٌ عن الصفةِ المتوسطةِ؛ وهي الإرادةُ وانبعاثُ النَّفْس بحكم الرغبةِ والميلِ إلى ما هو موافقٌ للغرضِ، إمَّا في الحالِ وإمَّا في المآلِ.

فالمحرِّكُ الأوَّلُ هو الغرضُ المطلوبُ وهو الباعثُ، والغرضُ الباعثُ هو المقصدُ المنْوِيُّ، والانبعاثُ هو القصدُ والنِّيَّة، وانتهاضُ القدرةِ لخدمةِ

الإرادةِ بتحريـك الأعضـاءِ هـو العمـلُ»[1].

ولمَّا كان من مُقَـرَّرَاتِ الشرعِ ومن مُسَلَّمَاتِ الدينِ أنَّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ لا يقبل من العملِ إلَّا ما كان خالِصاً وأريد به وجهه؛ فقد نبَّـه النبيُّ ﷺ على عِظَمِ شـأنِ النِّيَّةِ، ووجوبِ تخليصها ممَّا قـد يشوبهـا من شوائبَ تُفسدُ القصدَ وتُحبطُ العملَ.

وفي الحديث المتَّفقِ على صحته: عن عَلْقَمَةَ بنِ وَقَّاص اللَّيْثيِّ قالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رضي اللَّهُ عنه على المِنْبَر يقولُ: سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ:

«إنَّمـا الأعْمَالُ بـالنِّيَّاتِ، وَإنَّمـا لِكُلِّ امْـرِىءٍ مَا نَوَى؛ فَمَنْ كَانتْ هِجْـرَتُهُ إلَى اللَّهِ وَرَسُـولِهِ فَهجْـرَتُهُ إلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانتْ هِجْرَتُهُ لِدُنيَا يُصِيبُهَا أو امْرَأةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إلَى مَا هَاجَرَ إلَيه». هذا لفظ

---

(1) تهـذيب إحياء علوم الـدين. عبدالسـلام هـارون. جـ٢ ص ٢٥٣.

البخـاري رحمـه الله، ولفظ مسلم رحمـه الله: **«إِنَّمَـا الأَعْمَالُ بالنِّيَّـةِ، وَإِنَّمَا لِمْـرِىءٍ مَا نـوَى، فَمَنْ كَانتْ هِجْرَتُهُ إلى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنيا يُصِيبُهَا أو امْرَأةٍ يَتزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إلى مَا هَاجَرَ إلَيهِ»**.

قال النوويُّ رحمه الله: قوله ﷺ: **«إنَّمَا الأعْمَالُ بالنِّيَّة»**. الحديث، أجمع المسلمون على عِظَمِ موقعِ هـذا الحديثِ وكثْـرَةِ فوائـده وصحَّته، قـال الشافعيُّ وآخـرون: هو رُبُـعُ الإسلام. وقـال عبدالـرحمٰن بن مهديٍّ وغيرُه: ينبغي لِمَنْ صنَّفَ كتاباً أن يبدأ فيه بهذا الحديث، تنبيهاً للطالبِ على تصحيحِ النية. ونقـل الخـطابيُّ هذا عن الأئمـة مـطلقـاً. وقـد فعـل ذلـك البخـاريُّ وغيرُه فابتدؤوا بـه قبـل كـلِّ شـيء، وذكـره البخاريُّ في سبعةِ مواضعَ من كتابه.

وقال جماهير العلماءِ من أهلِ العربيـةِ والأصول وغيرهم: لفظةُ **«إنَّما»** موضوعة للحصرِ، تثبت المذكور

وتنفي ما سواه، فتقدير الحديث: أنَّ الأعمالَ تُحسب بنيَّةٍ ولا تُحسب إذا كانت بلا نيَّةٍ.

وقوله ﷺ: «**وَإِنَّمَا لِمْرِىءٍ مَا نَوَى**»، قالوا: فائدةُ ذِكْرِهِ بعد: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَّة**»: بيان أنَّ تعيينَ الْمَنْوِيِّ شرطٌ؛ فلو كان على إنسانٍ صلاةٌ مقضيَّةٌ، لا يكفيه أن ينوي الصلاةَ الفائتة، بل يُشترط أن ينوي كونها ظهراً أو غيرها، ولولا اللفظُ الثاني لاقتضى الأوَّلُ صحَّة النية بلا تعيين أو أوهم ذلك.

وقوله ﷺ: «**فَمَنْ كَانتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ**»، معناه: مَنْ قصد بهجرته وجهَ اللَّهِ وقع أجره على اللَّهِ، ومَنْ قصد بها دنيا أو امرأةً فهي حَظُّهُ ولا نصيبَ له في الآخرة بسبب هذه الهجرة. وأصلُ الهجرةِ التركُ، والمرادُ هنا: تركُ الوطنِ، وذِكْرُ المرأةِ مع الدنيا يحتمل وجهين: أحدهما: أنه جاء أنَّ سبب هذا الحديثِ أنَّ رجلاً هاجر

ليتزوَّج امرأةً يقال لها: أمُّ قيس، فقيل له: مهاجرُ أمِّ قيس. والثاني: أنَّه للتنبيه على زيادة التحذير من ذلك، وهو من باب ذِكْرِ الخاصِّ بعد العامِّ تنبيهاً على مَزِيَّتِهِ، والله أعلم»[1].

«وقد تقرَّر في الشرع أنَّ الله تبارك وتعالى لا يقبل من العباداتِ إلَّا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، والأدلَّةُ على ذلك من الكتاب والسنَّةِ كثيرةٌ جدًّا، منها:

١ ــ قوله تبارك وتعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

أي: لا يقصد بها غير وجه الله تعالى.

(١) شرح النووي على «صحيح مسلم» جـ ١٣ ص ٥٣.

٢ ـ وقوله أيضاً:

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥].

٣ ـ قوله ﷺ:

«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّات، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانتْ هِجْرَتُهُ إلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إلى اللّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كانَتْ هِجْرَتُهُ إلَى دُنْيَا يُصِيْبُهَا، أو امْرَأةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إلَى مَا هَاجَرَ إليهِ».

أخرجه البخاري في أول «صحيحه» ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٤ ـ قوله أيضاً:

«بَشِّرْ هَذِهِ الأمَّةَ بالسَّنَاءِ والتَّمْكِينِ فِي الْبلَادِ وَالنَّصْرِ وَالرِّفعَةِ فِي الدِّينِ، وَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ بِعَمَلِ الآخِرَةِ لِلدُّنيا، فَلَيْسَ لَهُ فِي الآخِرَةِ نصِيبٌ».

أخـرجـه أحمـد، وابنـه في زوائـد «المسند» (٥/١٣٤) وابن حبان في «صحيحه» (موارد) والحاكم (٤/٣١١) وقال: «صحيح الإسناد». ووافقه الذهبي، وأقـرَّه المنـذري (١/٣١). قلتُ: وإسنـاد عبـدالله صحيحٌ على شرط البخاري.

٥ ــ عن أبي أمامة رضي الله عنه قال:

«جَاءَ رَجُلٌ إلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أرَأيْتَ الرَّجُلَ غزَا يَلْتَمِسُ الأجْرَ وَالذِّكْرَ، مَا لَـهُ؟ فَقَـالَ: لَا شَيءَ لَـهُ، فَأعَادَهَـا ثَلَاثَ مَـرَّاتٍ، يَقُولُ لَـهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لا شيءَ لَهُ، ثُمَّ قَالَ: إنَّ الله لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إلَّا مَا كَانَ لَهُ خالِصاً وابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ».

أخرجه النسائي (٢/٥٩) وإسناده جيد كما قال المنذري (١/٢٤).

٦ ــ قوله ﷺ:

«قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أنا أغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ،

فَمَنْ عَمِلَ لِي عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ».

رواه ابن ماجه في «الزهد» من حديث أبي هريرة، وإسناده صحيحٌ على شرط مسلم، وقد أخرجه في «صحيحه» (٨/٢٢٣) نحوه[1].

فلا بُدَّ من الإخلاصِ لله عزَّ وجلَّ في كلِّ عملٍ، قال ابن القيم رحمه الله «كما أنَّه إلهٌ واحدٌ لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادةُ له وحده لا شريك له، فكما تفرَّد بالألوهية يجب أن يفرد بالعبودية، فالعمل الصالح هو الخالص من الرياء المقيَّد بالسنَّةِ» اهـ.

قال في تيسير العزيز الحميد: «وهذان ركنا العملِ المتقبَّلِ، لا بُدَّ أن يكون صواباً خالصاً، فالصواب أن يكون على السنَّة وإليه الإشارة بقوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا

---

(١) أحكام الجنائز وبدعها. الألباني. ص ٥٢.

صَٰلِحًا﴾، والخالص أن يخلص من الشرك الجَلِيِّ والخفيِّ وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[1].

فعلى طالب العلم أن يُحسنَ نيَّتَهُ في طلبه، «وحُسن النِّيَّةِ في طلبِ العلمِ بأن يقصد به وجه اللَّهِ تعالى، والعملَ به، وإحياءَ الشريعة، وتنويرَ قلبه، وتحليةَ باطنه، والقربَ من اللَّهِ تعالى يومَ القيامة، والتَّعَرُّضَ لما أعدَّ لأهله من رضوانه وعظيم فضله. قال سفيان الثوريُّ رحمه الله: ما عالجتُ شيئاً أشدَّ عليَّ من نيَّتي.

ولا يقصد به الأغراضَ الدنيويَّة من تحصيل الرياسة والجاه والمال، ومباهاة الأقران وتعظيم الناس له، وتصديره في المجالسِ ونحو ذلك، فيستبدل به الأدنى بالذي هو خير.

---

(١) تيسير العزيز الحميد. ص ٥٢٥.

قال أبو يوسف رحمه الله، يا قوم، أَرِيدُوا الله تعالى بعلمكم، فإنِّي لم أجلسْ مجلساً قطُّ أنوي فيه أن أتواضعَ إلَّا لم أقُمْ حتى أعْلُوَهُمْ، ولم أجلسْ مجلساً قطُّ أنوي فيه أن أعْلُوَهُمْ إلَّا لم أقُمْ حتى أفتضح.

والعلم عبادةٌ من العبادات، وقُرْبَةٌ من القُرَبِ، فإن خلُصَتْ فيه النية، قُبِلَ وزكى ونمت بركتُهُ، وإن قُصِدَ به غيرُ وجه الله تعالى حَبِطَ وضاع وخسرتْ صفقته، وربَّما تفوته تلك المقاصدُ ولا ينالها، فيخيب قصدُهُ ويضيعُ سعيُهُ[1].

ويجمع ما سبقَ حديثُ رسول الله ﷺ الذي رواه مسلم رحمه الله في «صحيحه» بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رسول اللَّهِ ﷺ يَقولُ:

«إنْ أوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ القِيامَةِ عَلَيهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ عَلَيهِ، فَعَرَفَها قالَ: فَما

(١) تذكرة السامع والمتكلم. ص ٦٨.

عَمِلْتَ فِيهَا؟ قالَ: قَاتلْتُ فِيك حَتَّى اسْتُشهِدْتُ. قال: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّك قاتلْت لأنْ يُقَالَ: فُلاَنٌ جَرِيءٌ، فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّار.

ورجُلٌ تعلَم العِلْم وعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآن، فَأتِي بهِ، فَعَرَّفهُ نِعَمه، فعرفهَا، قال: فما عمِلْتَ فِيهَا؟ قال: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وقَرَأْتُ فيكَ القرآن، قال: كَذَبْتَ، ولكنَّكَ تعلّمْت ليُقال: عالِمٌ، وقَرَأت الْقُرْآن ليُقال: هُو قَارِىءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِب عَلى وجْهِهِ حْتَّى أُلْقِي فِي النَّار.

ورجْلٌ وسَّع اللَّهُ عَلَيه، وَأعْطَاهُ مِنْ أصْنَافِ الْمال كُلِّهِ، فَأُتيَ بِه، فَعرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها، قالَ: فَمَا عَمِلْت فِيهَا؟ قالَ: مَا تركْتُ مِنْ سَبيل تُحِبُّ أنْ يُنْفَق فِيهَا إلاَّ أنفَقْتُ فِيهَا لَك. قالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّك فَعلْت لِيُقالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِي فِي النَّارِ».

قال النوويُّ رحمه اللَّهُ: «قوله ﷺ في الغازي والعالِمِ والجَوَادِ، وعقابهم على فعلهم ذلك لغير وجه الله، وإدخالهم النَّارَ، دليلٌ على تغليظ تحريم الرياء وشدة عقوبته، وعلى الحَثِّ على وجوب الإخلاص في الأعمال، كما قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وفيه أن العمومات في فضلِ الجهادِ إنَّما هي لمَنْ أراد الله تعالى بذلك مخلصاً، وكذلك الثناء على العلماء، وعلى المنفقين في وجوه الخيرات، كلُّه محمولٌ على مَنْ فعل ذلك لله تعالى مخلصاً»[1].

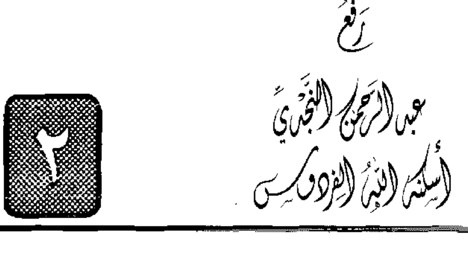
قلتُ: وحديثُ رسولِ الله ﷺ السابقُ قاضٍ بأنَّ على طالبِ العلم أن يُصَحِّحَ نيَّتَهُ في طلبه، فلا يكون طلبُهُ إلَّا لله وحده، يبتغي عنده الرضوان، ويرجو لديه

---

(١) شرح النووي على «صحيح مسلم». جـ ١٣ ص ٥٠.

الثوابَ، لا ليرتفع به في أعين النَّاسِ، ويعلوَ به فوق أعناقهم، ويركب به أكتافهم.

عن ابن عُمر رضي اللَّهُ عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ طلب الْعِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَيُمَارِيَ به السُّفهاء، أوْ ليصْرف وُجوه النَّاس إليه، فَهُوَ في النَّارِ**» رواه ابن ماجه، وصححَّه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب».



٢

الاشْتِغالُ بِتَطْهِيرِ الظَاهِرِ وَالْباطِنِ مِنْ شَوَائِبِ الْمُخالفات

يجب على طالبِ العلمِ أن يطهِّرَ ظاهره بمجانبةِ البدعةِ، والتحلِّي بِسُنَنِ رسول الله ﷺ في أحواله كلِّها، والمحافظة على الوضوء ونظافة الجسم والمظهر من غير تكلُّفٍ وعلى قدْرِ الطَّاقِة والوُسْعِ.

قال ابن أبي حاتم: ذكر عبدالله بن أبي عمر البكري قال: سمعت عبدالملك الميموني يقول: ما أعلمُ أنِّي رأيتُ أحداً أنظف ثوباً ولا أشدَّ تعاهداً لنفسه في شاربه وشعر رأسه وشعر بدنه، ولا أنقى ثوباً وشدَّة بياض، من أحمد بن حنبل.

وذلك لأنَّ أحمد رحمه الله كان يتحرَّك بسنَّةٍ

ويسكن بسنَّةٍ، يقول رحمه الله: ما كتبتُ حديثاً إلَّا وقد عَمِلْتُ به، حتى مرَّ بي أنَّ النبي ﷺ احتجم وأعطى أبا طَيْبَةَ ديناراً، فأعطيت الحجَّام ديناراً حين احتجمتُ.

ولا يُفْهَمَنَّ من الحضِّ على طهارة الثوب ونظافته الدعوة إلى المغالاة والترفُّعِ في الثياب، وإنَّما هي شيءٌ وراء ذلك، كيف وقد روى عبدالله بن أبي أمامة الحارثي عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**البَذَاذَةُ من الإيمان**»[1] يعني: التقشُّف.

قال ابن الأثير رحمه الله: «البَذَاذَةُ: رَثَاثَةُ الهيئة. يقال: بذُّ الْهيئة، وبَاذُّ الهيئة: أي رثُّ اللِّبْسة.

أراد التواضع في اللباس وترك التَّبَجُّحِ به»[2].

وروى الخطيب رحمه الله بسنده عن أبي عبدالله الْبُوشَنْجِيِّ قال: «وأمَّا البذاذة التي قال رسول الله ﷺ

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة. رقم ٣٤١.

(٢) النهاية. جـ ص ١١٠.

أنَّهـا من الإيمـانْ، فهي رثـاثـة الثيــاب في المَلْبَس والمَفْـرَش، وذلك تـواضـع عن رَفيـع الثيـابِ وثمين المـلابس والمُفْتَرش. وهي مـلابس أهل الـزهـد في الدنيا. يُقال: فلانٌ بَـذِيٌّ الهيئة، رَثُّ الملبس، والله أعلم»(١).

وقـال الخـطيب رحمـه الله: «يجب على طـالب الـعلم أن يـتجـنَّبَ الـلعبَ والـعبـث والتـبـذُّلَ فـي المجالسِ، بالسخفِ والضحكِ والقهقهةِ وكثرة التنادُرِ وإدمانِ المزاحِ والإكثار منه، فإنَّما يُسْتَجَازُ من الضحك يسيرُه ونادره وطَريفه الـذي لا يخرج عن حـدِّ الأدب وطريقة العلم. فأمَّا مُتَّصِلُهُ وفاحشه وسخيفه وما أوْغَرَ منه الصدور، وجلب الشرَّ، فإنَّه مذموم. وكثرةُ المزاح والضحك تضع من الْقَدْرِ وتزيل المروءة.

قال مالك رحمه الله: إنَّ حقاً على مَنْ طلب العلم

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع جـ ١ ص ١٥٤.

أن يكون له وقارٌ وَسَكينَةٌ وَخَشْيَةٌ، وأن يكون مُتَّبِعاً لأثَرِ مَنْ مضى قبله.

وعن محمد بن الحسين قال: قال سعيد بن عامر: كنَّا عند هشام الدَّسْتَوائِيِّ، فضحك رجلٌ منَّا، فقال له هشام: تضحك وأنت تطلبُ الحديثَ!!

وعن عبدالرحمٰن بن مهدي، قال: ضحك رجلٌ عند هشام الدَّسْتَوَائِيِّ، فقال له هشام: يا فتى تطلب العلم وتضحك! قال: فقال: أَلَيْس اللَّهُ أضحك وأبكى؟ فقال هشام فَابْكِ إذن»[1].

قلت: فطهارة الظاهر باتِّباعِ السنَّةِ، وحُسْنِ السَّمْتِ، ونظافَةِ الثوبِ والبدنِ، مطلوبٌ من كلِّ مسلمٍ، وهو أكثر تأكُّداً في حقِّ طالبِ العلمِ؛ لأنَّ العلمَ يدلُّه على مواطنِ الخير ومساربِ الوقار. وقد أخرج مسلم رحمه الله في «صحيحه» عن عبدالله بن

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع جـ ١ ص ١٥٦.

مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ. قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَناً وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**».

قال النووي رحمه الله: غَمْطُ الناس معناه احتقارهم، وبَطَرُ الحَقِّ: دَفْعُهُ وإنكارُهُ تَرَفُّعاً وَتَجَبُّراً.

وقد كان النبي ﷺ يحبُّ الطِّيْبَ ويحرصُ عليه، فعن موسى بن أنس بن مالك عن أبيه قال: كانَ لرسول الله ﷺ سُكَّةٌ يَتَطَيَّبُ منها. قال الألباني: «أخرجه أبو داود بإسنادٍ صحيح على شرط مسلم. والسُّكَّةُ: بضمِّ السين وتشديد الكاف، طِيْبٌ أسودُ يُخلط ويُعْرَكُ ويُترك وتظهر رائحته كلَّما مضى عليه الزمن، ويُحتمل أن تكون وعاءً يُوضع فيه الطِّيْبُ، وهو الظاهر»[1].

---

(١) مختصر الشمائل المحمدية، الألباني. ص ١١٧.

وكانَ النبيُّ ﷺ يكره الريحَ الخَبيثـةَ ويُنفِّرُ منهـا، فعن أبي سعيد الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قال: «لَمْ نَعْدُ أَنْ فَتَحْنَا خيْبَرَ، فَـوَقَعْنَا أَصْحَـابَ رَسُول اللَّهِ ﷺ فِي تِلْك الْبَقْلَةِ، الثُّومِ، والنَّاسُ جِيَاعٌ، فَأَكَلْنَا مِنْهَا أَكْـلاً شَدِيداً، ثُمَّ رُحْنَا إِلَى الْمَسْجِدِ، فَوَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرِّيحَ، فَقَال: مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الخبِيْثةِ شيئاً، فَلاَ يَقْربَنَّـا فِي الْمَسْجِـدِ، فَقَـالَ النَّـاسُ: حُـرِّمَتْ، حُرِّمَتْ، فَبَلَغَ ذَاكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَيْسَ لِي تَحْرِيمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لِي، وَلكِنَّهَا شَجَرَةٌ أَكْرَهُ رِيْحَهَا». رواه مسلم.

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الْبَقْلَةِ، الثُّومِ، وَقَالَ مَرَّةً: مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ والثُّومَ وَالْكُرَّاثَ، فَلاَ يَقْـرَبَنَّ مَسْجِدَنـا، فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ». رواه مسلم.

وقد نهى النبي ﷺ أن يترك المسلمُ قَصَّ شَارِبه أو تَقْلِيمَ أظْفَارِهِ، أوْ حَلْقَ عَانتِهِ، أوْ نتْفَ إِبطِهِ، أكثرَ من

أربعين ليلةً، فعن أنس بن مالك رضي اللَّهُ عنه قال: «**وُقِّت لَنَا فِي قَصِّ الشَّارِبِ، وَتقْلِيم الأظْفَارِ، وَنَتْفِ الإِبِطِ، وَحَلْقِ الْعَانةِ، أنْ لَا نتْرُكَ أكْثر مِنْ أرْبَعِين لَيْلَةً**». رواه مسلم.

قال النووي رحمه الله: «معناه: لا يترك تركاً يتجاوز أربعين، لا أنَّهم وُقِّتَ لهم التركُ أربعين»[1].

وحضَّ النبي ﷺ على استعمال السِّوَاكِ، ورغَّب فيه الأمَّة فقال: «**لَوْلَا أنْ أشُقَّ عَلَى أُمَّتي، لأَمَرْتُهُم بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ**». رواه مسلم من رواية أبي هريرة رضي الله عنه.

فعلى طالب العلم أن يتعهَّد طهارةَ ظاهره، وطهارتُه باتباع سنَّة النبي ﷺ، والتَّمسُّكِ بها، والعَضِّ عليها، وأولى النَّاس بذلك هم أهل العلم، فهم ورثةُ

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم. جـ ٣ ص ١٤٩.

النبي ﷺ وأحقُّ النَّاسِ بالاقتداءِ به، والقَصِّ على أَثَرِهِ ﷺ.

وأمَّا طهارة الباطنِ، فعلى طالب العلم «تقديمُ طهارةِ النفسِ عن رذائلِ الأخلاق، ومذمومِ الصفاتِ؛ إذِ العلمُ عبادةُ القلب، وصلاةُ السرِّ، وقُربةُ الباطن إلى الله تعالى.

وكما لا تصحُّ الصلاة التي هي وظيفةُ الجوارحِ الظاهرةِ إلَّا بتطهير الظاهرِ عن الأحداثِ والأخباث، فكذلك لا تصحُّ عبادةُ الباطنِ وعمارةُ القلبِ بالعلمِ إلَّا بعد طهارتِهِ عن خبائثِ الأخلاقِ وأنجاس الأوصاف.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، تنبيهاً للعقول على أنَّ الطهارة والنجاسة غير مقصورةٍ على الظواهر المُدْرَكَةِ بالحسِّ، فالمشركُ قد يكون نظيف الثوب، مغسول البدن، ولكنَّه نجِسُ الجوهر، أي: باطنه مُلَطَّخٌ بالخبائث. والنجاسةُ عبارةٌ عمَّا يُجتنب ويُطلب البعدُ منه، وخبائث صفاتِ الباطنِ

أهمُّ بالاجتناب، فإنَّها مع خبثها حـالاً، مهلِكَاتٌ في المآل[1].

عن ابن عُمَـرَ رضي اللَّهُ عنهمـا قـالَ: «وَعَـدَ رَسُولَ الله ﷺ جِبْرِيلُ أنْ يأتِيهُ، فَرَاثَ عَلَيهِ، حَتَّى اشْتَدَّ عَلَى رَسُـولِ اللَّهُ ﷺ، فَخَرَجَ فَلَقِيَـهُ جِبْرِيـلُ، فَشَكَا إليه، فَقَالَ: إنَّا لَا نَدْخُلُ بَيْتاً فِيـهِ كَلْبٌ وَلَا صُوْرَةٌ». رواه البخاريُّ، ومعنى: رَاثَ: أبْطَأ.

قال أبو حامد رحمه الله: «والقلبُ بيتٌ هو منزل الملائكة ومهبط أثرهم، ومحلٌّ استقرارهم، والصفاتُ الرديئةُ مثل الغضبِ والشهوةِ والحقدِ والحسدِ والكِبْر، والعجبِ وأخـواتهـا، كـلابٌ نـابحـةٌ، فـأنَّى تـدخله الملائكةُ وهو مشحونٌ بالكلاب؟؟»[2].

وقال ابن جماعة رحمه الله: على طالب العلم أن يُطَهِّرَ قلبه من كلِّ غِشٍّ ودنسٍ وغِـلٍّ وحسدٍ، وسـوءِ

(١) إحياء علوم الدين جـ ١ص ٤٩.
(٢) إحياء علوم الدين. جـ ١ ص ٤٩.

عقيدةٍ وخُلُقٍ، ليصلحَ بذلك لقبول العلم وحفظِهِ، والاطلاعِ على دقائق معانيه وحقائق غوامضه، فإنَّ العلمَ ـ كما قال بعضهم ـ صلاةُ السرِّ وعبادةُ القلبِ، وقُرْبَةُ الباطن.

وكما لا تصحُّ الصلاة التي هي عبادةُ الجوارحِ الظاهرةِ إلَّا بطهارة الظاهر من الحَدَثِ والخَبَثِ، فكذلك لا يصحُّ العلم الذي هو عبادةُ القلبِ إلَّا بطهارته عن خَبَثِ الصفاتِ وَحَدَثِ مساوىء الأخلاق ورديئها.

وإذا طُيِّبَ القلبُ للعلم ظهرت بَرَكَتُهُ ونما، كالأرض إذا طُيِّبَتْ للزرع، نما زرعها وزكا، وفي الحديث: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدتْ فَسَدَ الْجسَدُ كُلُّهُ: أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ**»(١)، وقال سَهْلٌ: حرامٌ على قلبٍ أن

---

(١) بعضُ حديثٍ متفق عليه من رواية النعمان بن بشير رضي الله عنه.

يدخلَه النورُ وفيه شيءٌ ممَّا يكره اللَّهُ عزَّ وجـلَّ[1].

لا بُدَّ من تطييب القلب للعلم، وتطييبه بـالتوبـة والإنابة، والإقلاع عن الذنوب والمعاصي، فللذنوب والمعاصي آثارٌ بالغةُ السُّوءِ في الحرمـان من العلم، وفي مَحْقِ بَرَكَتِهِ.

قال ابن القيم رحمه الله: «وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومةِ، المضِرَّةِ بالقلب والبدن في الدنيـا والآخرة، ما لا يعلمه إلَّا الله.

منها: حرمانُ العلم، فإنَّ العلمَ نورٌ يقذفه اللَّهُ في القلب، والمعصية تطفىء ذلك النور.

ولمَّا جلس الشافعيُّ بين يدي مالكٍ وقرأ عليـه، أعجبه ما رأى من وفور فِطْنَتِهِ، وتَوَقُّدِ ذكائِـهِ، وكمال فهمِهِ، فقال: إنِّي أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً، فلا تطفئه بظلمة المعصية.

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم. ص ٦٧.

وقال الشافعي رحمه الله:

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي
فَأَرْشَدنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي
وَقَالَ: اعْلَمْ بِأَنْ الْعِلْمَ فَضْلٌ
وَفَضْلُ اللَّهِ لا يُؤْتَاهُ عَاصٍ»[1]

وقال ابن الجوزي رحمه اللَّه: «عن أَبي عبدالله بن الجلاء، قال: كنتُ أنظرُ إلى غلامٍ نصرانيٍّ حَسَنِ الوجه، فمرَّ بي أبو عبدالله البلخيُّ. فقال: إيش وقوفك؟ قلتُ: ياعمٍّ، أمَا ترى هذه الصورة؟ كيف تُعَذَّبُ بالنَّار؟ فضرب بيده بين كتفي، وقال: لَتَجِدَنَّ غِبَّهَا ولو بعد حين. قال: فوجدتُ غِبَّهَا بعد أربعين سنةً، أن أُنْسِيْتُ القرآن.

وبإسنادٍ عن أبي الأديان قال: كنتُ مع أستاذي وأبي بكر الدقاق. فمرَّ حَدَثٌ، فنظرتُ إليه، فرآني

---

(١) الجواب الكافي ص ٥٤.

أستاذي وأنا أنظر إليه، فقال: يا بُنيَّ، لَتجِدَنَ غِبّهَ ولو بعد حين. فبقيتُ عشرين سنةً وأنا أراعي فما أجد ذلك الغِبَّ، فنمتُ ليلةً وأنا أفكر فيه، فأصبحتُ وقد أنسيتُ القرآنَ كلَّه»[1].

قلتُ: غِبُّ الأمْرِ وَمَغَبَّتُهُ: عَاقِبَتُهُ وآخِرُهُ.

قال أبو حامد رحمه الله: «فإن قلتَ: كم مِنْ طالبٍ رديء الأخلاق حَصَّلَ العلومَ! فهيهات ما أبعده عن العلم الحقيقيِّ النافعِ في الآخرة الجالب للسعادة!! فإنَّ من أوائل ذلك العلم أن يظهر له أن المعاصي سمومٌ قاتلةٌ مُهلكةٌ، وهل رأيتَ مَنْ يتناول سَمّاً مع علمه بكونه سَمّاً قاتلاً؟؟

إنَّما الذي تسمعه من المترسِّمين حديثٌ يلفِّقونه بألسنتهم مَرَّةً، ويردونه بقلوبهم أخرى، وليس ذلك من العلم في شيء.

---

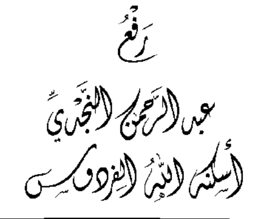
(١) تلبيس إبليس. ص ٣١٠.

قال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: ليس العلم بكثرة الـروايـة، إنَّمـا العلم نـورٌ يُقـذفُ في القلب، وقـال بعضهـم: إنَّمـا العلمُ الخشيةُ لقـولـه تعـالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وكأنَّهُ أشار إلى أخصِّ ثمرات العلم، ولـذلك قال بعض المحقِّقين: معنى قولهم: «تعلَّمنا العلمَ لغير الله، فَأَبَىٰ العلمُ إلَّا أن يكـون لله»، أنَّ العلمَ أَبَىٰ وامتنـع علينـا فلم تنكشفـ لنا حقيقتُهُ وإنَّما حصل لنا حديثُه وألفاظُه.

فإن قلتَ: إني أرى جماعةً من العلماء الفقهـاءِ المحقِّقين برزوا في الفروعِ والأصول وعُدُّوا من جملة الفحول، وأخلاقهم ذميمةٌ لم يتطهَّروا منها. فيُقال: إذا عرفتَ مراتبَ العلومِ، وعرفتَ علمَ الآخرة، استبـان لك أنَّ ما اشتغلوا به قليلُ الغَنَاء من حيث كونه علماً، وإنَّما غَنَاؤُه من حيث كونه عملاً لله تعالى إذا قصد به التقرُّب إلى الله تعالى»[1].

(١) إحياء علوم الدين جـ ١ ص ٤٩.

قلتُ: وحرفُ المسألة يدور على طهارةِ القلبِ، وخضوع الجوارح لأحكامِ الشرع. فعلى طالب العلم أن يتعهَّدَ باطنه بالرعاية، وظاهره بالسنَّةِ، حتى يفتَح اللَّهُ عليه من العلِم أنواره، ومن الحكمة كنوزها، وذلك فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء، والله ذو الفضل العظيم.





تَفْرِيغُ الْقَلْبِ للعِلْمِ، وَقَطْعُ الْعَلَائِقِ وَهَجْرُ الْعَوَائِدِ

قال ابن القيم رحمه الله: «الوصول إلى المطلوبِ موقوفٌ على هجر العوائِدِ، وقطعِ العلائقِ.

فالعوائدُ السكونُ إلى الدَّعَةِ، والراحةِ، وما أَلِفَهُ النَّاسُ واعتادوه من الرسوم والأوضاع التي جعلوها بمنزلةِ الشرعِ المتَّبَعِ، بل هي عندهم أعظم من الشرع، فإنهم ينكرون على مَنْ خرج عنها وخالفها ما لا ينكرون على مَنْ خالَفَ صريحَ الشرعِ، وربَّما كفَّروهُ أو بَدَّعُوهُ وضلَّلوهُ[1]، أو هجروه وعاقبوه لمخالفة تلك الرسوم. وأماتوا لها السُّنَنَ، ونصبوها أنداداً

---

(١) بدَّعوه: نسبوه إلى البدعة وضلَّلوه: نسبوه إلى الضلال.

للرسول يُوَالُونَ عليها ويُعادون، فالمعروف عندهم ما وافقها، والمنكر ما خالفها.

وهذه الأوضاعُ والرسومُ قد استولت على طوائف بني آدم؛ من الملوك والـولاةِ، والفقهاءِ والصوفيـة، والفقراءِ، والمطوعين(١) والعامَّةِ، فـربى فيها الصغيـر ونشأ عليها الكبير، واتُّخِذَتْ سنناً، بل هي أعظم عند أصحابها من السُّنَنِ. الواقفُ معها محبوسٌ، والمتقيِّدُ بها منقطعٌ، عَمَّ بهـا المصابُ، وهُجـر لأجلها السنَّـةُ والكتابُ. مَنْ استنصر بها فهو عند الله مخذول، ومَنْ اقتدى بها دون كتاب الله وسنَّةِ رسوله فهو عند اللَّهِ غيرُ مقبول. وهذه أعظمُ الحُجُبِ والموانِع بين العبد وبين النفوذ إلى الله ورسوله.

وأمَّـا العوائقُ فهي أنـواعُ المخالفـات ظـاهـرهـا وباطنها، فإنَّها تعوق القلبَ عن سيره إلى الله، وتقطع

---

(١) هم الذين يأمرون بالمعروف.

عليه طريقه، وهي ثلاثةُ أمورٍ: شركٌ، وبدعةٌ، ومعصيةٌ، فيزول عائق الشرك بتجريد التوحيد، وعائق البدعة بتحقيق السنَّة، وعائق المعصية بتصحيح التوبة.

وهذه العوائق لا تتبيَّن للعبد حتى يأخذ في أهبة السفر، ويتحقَّق بالسير إلى الله والدار الآخرة، فحينئذٍ تظهر له هذه العوائق، ويحسُّ بتعويقها له بحسب قوَّةِ سيره وتجرُّده للسفر، وإلاَّ فما دام قاعداً لا يظهر له كوامنها وقواطعها.

وأمَّا العلائق فهي كلُّ ما تعلَّق به القلب دون الله ورسوله من ملاذِّ الدنيا وشهواتِها، ورياساتِها، وصحبةِ النَّاس، والتعلُّق بهم.

ولا سبيل له إلى قطع هذه الأمور الثلاثة ورفضها إلاَّ بقوة التعلُّق بالمطلب الأعلى، وإلاَّ فقطعها عليه بدون تعلُّقه بمطلوبه ممتنع، فإنَّ النفس لا تترك مألوفها ومحبوبها إلاَّ لمحبوب هو أحبُّ إليها منه، وآثَرُ عندها

منه، وكلَّما قوي تعلُّقه بمطلوبه ضعف تعلُّقـه بغيره، وكذا بالعكس، والتعلُّقُ بالمطلوبِ هو شدَّةُ الرغبةِ فيه، وذلك على قدر معرفته به، وعلى قدر شرفه، وفضله على ما سواه»[1].

قلتُ: والأمـر كمـا قــال ابن القيم رحمـه الله، فالوصولُ إلى المطلوبِ موقوفٌ على هَجْـرِ العوائِـدِ، وقَطْعِ العلائِقِ، وتذليلِ العوائقِ.

والأمر كما قال رحمه الله مبنيٌّ على قوَّةِ التعلُّقِ أو شدَّة الرغبة في المطلب الأعلى، فكلما اشتدت الرغبةُ هـانت التضحية، وأصبـح المآل كـالحـالِ وضـوحـاً وتحقُّقاً، وإنَّما هي أيامٌ يسيرةٌ، ولَذَّاتٌ منقضيةٌ، وأوهامٌ كالسراب، وكما قال الإمام أحمد رحمه الله: إذا ذُكِرَ الموتُ هان كلُّ شيءٍ من أمر الدنيا، وإنَّما هو طعامٌ دون طعامٍ، ولباسٌ دون لباسٍ، وإنَّها أيامٌ قلائل.

---

(١) الفوائد ص ٢٠٤.

فعلى طالبِ العلم أن يكون عظيمَ الرغبةِ في الآخرة وما عند الله، شديدَ التعلُّق بالمطلبِ الأعلى والمقصد الأسنى، فإنَّ في العلم شغلاً عن متاعِ الحياةِ وزخرفها، وإنَّها أيامٌ قلائل.

وقال أشعثُ أبو الربيع: قال لي شعبةُ: لزمتَ سوقَك فأفلحتَ وأنجحتَ، ولزمتُ أنا الحديثَ فأفلست.

وقال سفيان بن عيينة: سمعتُ شعبةَ يقول: مَنْ طلبَ الحديثَ أفلس، لقد أفلستُ حتى بعتُ طستاً لأمي بسبعة دنانير.

وعن الزبير بن أبي بكر قال: قالت ابنة أختي لأهلنا: خالي خيرُ رجل لأهله، لا يتخذ ضَرَّةً ولا يشتري جاريةً. قال: تقول المرأة: واللّهِ لَهَذِهِ الكُتُبُ أشدُّ عليَّ من ثلاثِ ضرائر»[1].

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع جـ ١ ص ٩٩.

قال الطحَّانُ حفظه الله: «قولُ شُعبةَ وما بعده من الأقوال، إنَّما أراد به شعبةُ بيانَ حقيقة ما حصل معه أولًا، والنصحَ لتلاميذه أصحابِ الحديث، الذي يستغرق طلبُ الحديثِ جميع أوقاتهم، فلا يتمكّنون من الكسبِ الذي يسدُّ حاجتهم وحاجةَ مَنْ يعولون؛ فيصبحون عالةً على النَّاسِ، وهو خلاف ما أمرت به السنَّةُ المطهَّرةُ.

ولا يُفْهَمَنَّ من كلام شُعبةَ رحمه الله أنَّه يتحسَّر على ما فاته من الدنيا كلًّا، فقد كان زاهداً كريماً، حتى إنَّ المهديَّ أهداه ثلاثين ألف درهمٍ فقسَّمها، ومَنْ أحبَّ المزيد من معرفة كرمه وزهده فليراجع الحلية لأبي نعيم (٧/١٤٤ - ١٤٧)، كما لا يُفْهَمَنَّ من كلامه أنَّه يريد صرفَ النَّاس عن طلب الحديث، وإنَّما يريد منهم أنْ يطلبوا الحديث ويكسبوا معاشهم»[١].

---

(١) تعليق الطحان على «الجامع» للخطيب. جـ ١ ص ٩٩.

قال سفيانُ بن عيينـةَ رحمه الله : لا تـدخل هـذه المحابرُ بيتَ رجلٍ إلاَّ أشقى أهلَهُ وولَدَهُ.

قال الطحّانُ حفظه الله : المـراد بالمحـابر هنـا : المحابرُ التي يستعملها أصحابُ الحديث ويصطحبونها معهم أينمـا ذهبوا لكتـابة الأحـاديث التي يَتَلَقَّـوْنَهَـا. والمـراد بقول سفيـان : أنَّ غالبَ أصحـابِ الحـديثِ تشغلهم كتابةُ الحديث والعناية به عن كسب معاشهم وقوت عيالهم. فبـذلك يبقى أهلُهُ وولـدُهُ في حاجـةٍ وعـوزٍ، فيشقـون بسبب تلك المحــابـر التي شغلت كاسبَهُم ومُعيلَهُمْ.

قال ابن جماعة رحمه الله : «على طالب العلم أن يبـادر شبابـه وأوقات عمـره إلى التحصيل، ولا يغتـرَّ بخدع التسويف والتأميل، فإن كلَّ سـاعةٍ تمضي من عمره لا بدلَ لها، ولا عِوَضَ عنها.

ويقـطع مـا يقـدر عليـه من العــلائق الشـاغلة،

والعوائق المانعة عن تمام الطلب، وبذل الاجتهاد وقوَّةِ الجِدِّ في التحصيل، فإنَّها كقواطع الطريق.

ولذلك استحبَّ السلف التغرُّب عن الأهل والبعد عن الوطن، لأنَّ الفكرة إذا تـوزَّعتْ قصرت عن دَرْكِ الحقائقِ وغموض الدقائق، وما جعل الله لـرجلٍ من قلبين في جوفه.

ونقل الخطيبُ البغدادي في «الجامع» عن بعضهم قال: لا ينال هذا العلمَ إلَّا مَنْ عَطَّلَ دكّانَهُ، وخَـرَّبَ بستانهُ، وهَجَرَ إخوانـهُ، ومات أقـرب أهله فلم يشهد جنازته، وهذا كلُّه وإن كان فيه مبالغةٌ، فالمقصود به أنَّه لا بُدَّ من جمع القلب واجتماع الفكر»[1].

قلتُ: وليس المقصود من قطع العلائق أن يضَيِّع المرءُ مَنْ يعول، أو يكفَّ عن السعي في طلب الرزق يتكفَّفُ النَّـاس أعطوه أو منعـوه، فقد قـال الشـافعي

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم. ص ٧٠.

رحمه الله: لا تشاوِرْ مَنْ ليس في بيته دقيقٌ، فإنَّه مُولَهُ[1] العقل.

وإنَّما القصد أن يقطع من العلائق الشاغلة ما هو في غنىً عنه، مع الاقتصاد في السعي، ومع تفريغ القلب وبذل الجهد في طلب العلم، فالأمر كما قال أبو يوسف القاضي رحمه الله: العلمُ شيءٌ لا يعطيك بعضَه حتى تعطيه كُلَّك، وأنتَ إذ تعطيه كُلَّك من إعطائِهِ البعض على غَرَرٍ[2].

قلتُ: على غَرَرٍ أي على خَطَرٍ.

---

(١) الوَلَهُ: الحُزْنُ. وقيلَ: هو ذَهابُ العقلِ والتَّحَيرُ مِنْ شِدَّة الْوَجْدِ أو الحُزْنِ أو الخَوْفِ، والوَلَهُ. ذهابُ العقل لفُقدانِ الحبيب.

(٢) غَرَّرَ بنفسهِ ومالِهِ تَغْرِيراً وتَغِرَّةً: عَرَّضَهُا لِلْهَلَكَةِ من غير أن يعرف، والاسمُ: الغَرَرُ، والغَرَرُ: الخَطَرُ. وبَيْعُ الْغَرَرِ، هو مثلُ بَيْعِ السمك في الماء والطير في الهواءِ. [لسان العرب. ص ٣٢٣٣].

وقد قال النبي ﷺ فيما أخرجه مسلم من رواية ثوْبان رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«أفضلُ دِينارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ، دِيْنَارٌ يُنْفقُهُ على عِيَالِهِ، وَدِيْنَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَى دَابَّتِهِ في سبيل الله، ودِيْنَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحابِهِ في سبيلِ الله». قال أَبو قِلَابَةَ: وَبَدأ بِالْعِيَالِ، ثُمَّ قَالَ أبو قِلَابَةَ: وَأيُّ رَجُلٍ أعظَمُ أجْراً مِنْ رَجُلٍ يُنْفقُ على عِيالٍ صِغارٍ يُعفُّهُمْ أو ينفعُهمُ الله به ويُغْنيهمْ؟؟

وعن أبي هُريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«دِيْنارٌ أنفقْتَهُ في سبيل الله، ودِيْنارٌ أنفقْتَهُ في رقبة، ودِينارٌ تصدَّقْتَ به على مسكين، ودِيْنَارٌ أنْفقْتَهُ على أَهْلِك، أعْظَمُهَا أجراً الذي أنْفَقْتَهُ على أَهْلِك»** رواه مسلم.

وأخرج مسلمٌ بسنده عن خَيْثَمة قالَ: كُنَّا جُلُوساً مَعَ عَبْد الله بن عَمْروٍ إذْ جَاءَهُ قَهْرَمَانٌ لَهُ، فدخل، فقال: أعْطَيْت الرَّقيق قُوتَهُمْ؟ قال: لا، قَالَ: فَانْطَلِقْ

فَأعْطِهِمْ. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كفى بِالْمرْءِ إثْماً أنْ يَحْبِس عَمَّنْ يَمْلكُ قُوتهُ».

قال النووي رحمه الله: «قوله: «قَهْرَمانُ» بفتح القاف وإسكان الهاء وفتح الراء، وهو الخازن القائم بحوائج الإنسان، وهو بمعنى الوكيل، وهو بلسان الفُرْس»[1].

«وكان سفيانُ الثوريُّ رحمه الله إذا أتاه الرجلُ يطلب العلم سأله: هل لك وجهُ معيشةٍ؟ فإن أخبره أنَّه في كفايةٍ، أمَرَهُ بطلبِ العِلم، وإن لم يكن في كفايةٍ، أمَرَهُ بطلبِ المعاش»[2].

وإذا كان ذلك كذلك فينبغي أن تُحمل نصوصُ السلف في إيثار الفقرِ مع طلب العلم على أنَّ ذلك مع بلوغ حدِّ الكفاف، والقيام بشأن مَنْ يعول، وأنَ

---

(١) شرح النووي على «صحيح مسلم». جـ ٧ ص ٨٢.
(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع. جـ ١ ص ٩٨.

المـذمـوم من ذلـك هـو الإغـراق في طلب الـدنيـا، والحـرص على متاعهـا، وإنفاقُ السـاعات في جمـع حُطامها.

وقد كان السلف رضي الله عنه يحبُّونَ العلم حبّاً ربَّما أضرَّ بدنياهم؛ أخرج البخاريُّ رحمـه الله بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إِنَّكُمْ تَقُولون: إن أبا هُرَيْرة يُكْثِرُ الْحديث عنْ رسُول الله ﷺ، وتقولون: ما بالُ الْمُهَاجرين والأَنْصَارِ لا يُحدِّثُون عنْ رسُول الله ﷺ بمثْل حديث أبي هُرَيْرة؟ وإنَّ إخْوتي من الْمُهاجـرين كـان يشْغلهُم الـصَّفْـقُ بـالأسْـواق، وكنـتُ أَلْـزمُ رسُـول الله ﷺ على مَلْءِ بـطني، فأشْهـدُ إذا غابُـوا، وأحْفظ إذَا نسُوا، وكَان يشْغلُ إخوتي من الأنصار عمل أمَوالِهم، وكنتُ امْرءاً مسْكيناً منْ مَساكين الصُّفَّة أعي حين يَنْسَـون، وقـدْ قـالَ رسُـولُ الله ﷺ فِي حَـدِيثٍ يُحَدِّثُهُ: «**إنَّهُ لَنْ يَبْسُطَ أحدٌ ثَوْبَهُ حَتَّى أَقْضِيَ مَقَالَتِي هَذِهِ ثُمَّ يجْمعُ إليه ثَوْبَهُ إلا وعَى ما أقول**، فبسـطت نمرةً

عليَّ، حَتَى إذا قضى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَالَتَهُ جَمَعْتُهَا إلى صَدْري، فما نَسيْتُ مِنْ مقالِة رَسُولِ الله ﷺ تِلْك مِنْ شيء»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كُنتُ ألْـزَمُ النَّبيَّ ﷺ لِشِبَعِ بَطْني، حِينَ لا آكُلُ الْخمِير، وَلا أَلْبسُ الْحبير، ولاَ يَخدُمُني فلانٌ ولا فُلاَنـةُ، وَأَلْصقُ بطْني بالْحَصْبَاء، وأستقْرىءُ الرَّجُلَ الآية ـ وهي معي ـ كي يَنْقلِبَ بِي فَيُطعمَني»[2]. رواه البخاري.

وَبَوَّبَ البخاري رحمه الله في «كتاب العلم» من صحيحه باباً سمَّاه: باب «حِفْظِ العلِم»، وأخرج فيـه عن أبي هُرَيْرَةَ رضي اللَّهُ عنه قولَه: «إنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ أكْثَر أبُو هُرَيرةَ. وَلَوْلاَ آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حَدَّثْتُ

(١) أخرجه البخاري في كتاب البيوع ب ١، وأيضاً في كتاب الحرث والمزارعة ب ٢١، وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب فضل أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة ب ٣٢.

حَديثاً، ثُمَّ يَتْلو: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾. إنَّ إخْوَانَنَا مِنَ المُهَاجِرينَ كانَ يَشْغلُهمْ الصَّفْقُ بِالأَسْوَاقِ، وَإنَّ إخْوانَنَا مِنَ الأنصارِ كَانَ يَشْغلُهُمُ الْعَمَلُ فِي أمْوَالِهِمْ، وَإنَّ أبَا هُرَيرة كَانَ يَلْزَمُ رَسُول الله ﷺ بِشِبَع بَطْنِهِ، وَيَحضَرُ مَا لاَ يَحْضُرُونَ، وَيَحْفَظُ مَا لا يَحْفَظُونَ».

قال الحافظ رحمه الله: «قول البخاري: «بابُ حفْظِ العِلْمِ»، لم يذكر في الباب شيئاً عن غير أبي هريرة، وذلك لأنَّه كان أحفظ الصحابة للحديث، قال الشافعي: أبو هريرة أحفظُ مَنْ روىٰ الحديثَ في عصره. وقد كان ابن عمرَ يترحَّمُ عليه في جنازته ويقولُ: كان يحفظ على المسلمين حديثَ النبي ﷺ.

قـوله: «أَكْثَـرَ أَبُـو هُـرَيْـرَةَ»، أي: من الحـديث عن رسول الله ﷺ. وقوله: «الصَّفْقُ» بإسكـان الفاء، هـو ضرب اليد على اليـد، وجَرَتْ بـه عَادتهم عنـد عقد البيع»[1].

وقال رحمه الله: «قوله: «على مَـلْءِ بطني»، أي مقتنعاً بالقوتِ، أي فلم تكن له غَيبةٌ عنه.

وقوله: «نَمِرَةً» بفتح النون وكسر الميم، أي كساءً ملوَّناً، وقال ثعلب: هي ثوبٌ مُخطَّطٌ، وقـال القزاز: درَّاعةٌ تُلْبَسُ، فيها سوادٌ وبياضٌ»[2].

وقـال رحمه الله: «قـوله: «لَا أَلْبَسُ الْحبِيـرَ» هو الثوب المُحَبَّرُ، وهو المُزَيَّنُ الملوَّن، مأخوذٌ من التحبير وهـو التحسين، وقيل: الحبيـرُ ثـوبُ وشي مُخَـطَّط، وقيل: هو الجديد»[3].

---

(١) فتح الباري. جـ ١ ص ٢٥٨.
(٢) فتح الباري. جـ ٤ ص ٣٣٩.
(٣) فتح الباري. جـ ٩ ص ٤٦٩.

وقال النووي رحمه الله: «قوله»: «**عَلَى مَلْءِ بَطْني**»، أي: ألازمه وأقنع بِقُوْتِي ولا أجمع مالاً لذخيرةٍ ولا غيرها ولا أزيد على قُوْتِي، والمراد من حيث حصول القوت من الوجوه المباحة، وليس هو من الخدمة بالأجر»[1].

وأخرج ابن كثير - رحمه الله - بسنده إلى سعيد بن هند عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «**ألَا تسألني من هذه الغنائم التي سألني أصحابك؟؟ قال أبو هريرة: فقلتُ: أسألك أن تعلِّمني ممَّا علَّمك الله**»[2].

وأبو هريرة - رضي الله عنه - أحفظُ أصحابِ النبي ﷺ لحديثه، مع كونه قصيرَ مُدَّةِ صُحْبَةٍ له، فالمشهور أنَّه أسلم سنة سبعٍ من الهجرة بين الحديبية

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم. جـ ١٦ ص ٥٣.

(٢) البداية والنهاية. جـ ٨ ص ١١١.

وخيبر، وكان عمره حينئذٍ نحواً من ثلاثين سنة، ولازم رسول الله ﷺ ملازمةً تامةً، حتى تُوفِّيَ ﷺ.

فأبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أحفظ الأصحاب للحديث وأكثرهم روايةً مع قِصَرِ مُدَّةِ صُحْبَتِهِ التي لم تزد على ثلاثة أعوام. وذلك لإخلاصِهِ للعلم، وحَذْفِ علائِقِ الدنيا، وتفريغ القلب من الشواغِل والمطامِع والهموم.

«فينبغي لطالب العلم قطع العلائق الشاغلة، فإنَّ الفكرة متى توزَّعتْ قَصُرتْ عن إدراك الحقائق.

وقد كان السَّلفُ يُؤْثرونَ العلمَ على كلِّ شيءٍ، فروي عن الإمام أحمد رحمه الله أنَّه لم يتزوَّج إلَّا بعد الأربعين.

وأهْدِيَتْ إلى أبي بكر الأنباري جاريةٌ، فلمَّا دخلتِ عليه تفكَّر في استخراج مسألة فعزُبت[1] عنه، فقال:

(١) عَزُبتْ: أي بعُدتْ.

أخرجوها إلى النَّخَّاس[1]، فقالت: هل لي من ذنب!؟ قال: لا، إلاَّ أنَّ قلبي اشتغل بك، وما قَدْرُ مِثْلِكِ أن يمنعني علمي»[2].

وقال الشافعيُّ ـ رحمه الله ـ لا يطلب أحدٌ هذا العلمَ بالملكِ وعزِّ النفس فيفلح، ولكن مَنْ طَلَبهُ بِذُلِّ النَّفْسِ وضيقِ العَيْشِ وخِدْمةِ العلماء أفلح.

وروى ابن وهبٍ عن مالك بن أنس رحمه الله قال: لا يبلغ أحدٌ من هذا العلمِ ما يريد حتَّى يضرَّ به الفقرُ ويُؤْثِرَهُ على كلِّ شيء»[3].

---

(١) هو بائع الدواب والرقيق.

(٢) مختصر منهاج القاصدين. ص ١٤.

(٣) الفقيه والمتفقه. جـ ٢ ص ٩٣.

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

٤

أكْلُ الْقَدْرِ الْيسِيرِ مِنَ الحَلَال وَالأَخْذُ بِالْوَرَعِ ، وَإدَامَةُ الذِّكْر

قال ابن جماعة رحمه الله : «من أعظم الأسبابِ المعينةِ على الاشتغال والفهمِ وعدمِ الملالِ ، أكلُ الْقَدْرِ اليسير من الحلال.

قال الشافعيُّ - رحمه الله -: ما شَبِعْتُ منذ ستَّ عشرةَ سنة. وسببُ ذلك أنَّ كثرة الأكلِ جالبةٌ لكثرةِ الشرب، وكثرتُهُ جالبةٌ للنَّومِ والبلادةِ وقصور الذهن وفتور الحواسِّ وكسلِ الجسمِ ، هذا مع ما فيه من الكراهية الشرعيةِ، والتعرُّضِ لخطرِ الأسقام البدنية.

كما قيل:

فَــإنَّ الــدَّاءَ أكْــثــرَ مَــا تــرَاهُ
يَكُــونُ مِنَ الـطَّعَــامِ أو الشَّــرَابِ

ولم يُرَ أحدٌ من الأولياء والأئمةِ الأعلامِ يَصِفُ أو يُوْصَفُ بكثرةِ الأكِل، ولا حُمِدَ به، وإنَّما يُحْمَدُ كَثْرَةُ الأكـل من الدوابِّ التي لا تَعْقِـلُ، بل هي مُـرْصَـدَةٌ للعملِ ، والذهنُ الصحيحُ أشرفُ من تبديده وتعطيله بالْقَدْرِ الحقير من طعامٍ يؤول أمْرُهُ إلى ما قد عُلِمْ.

ولو لم يكن من آفات كثرة الطعامِ والشرابِ إلَّا الحاجة إلى كثرةِ دخول الخـلاءِ لكان ينبغي للعـاقل اللبيب أن يصونَ نفسَه عنه.

ومَنْ رامَ الفلاح في العلمِ وتحصيل البُغْية منه مع كثـرة الأكل والشـرب والنـوم فقـد رام مستحيـلاً في العادة»[١].

وقال ابن قُدامـة ـ رحمه الله ـ: «شهوةُ البطن من

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم. ص ٧٤.

أعظم المهلكات، وبها أُخرج آدمُ عليه السلام من الجنَّة، ومن شهوة البطن تحدثُ شهوةُ الفَرْج والرغبة في المال، ويتبع ذلك آفاتٌ كثيرةٌ كُلُّها من بطر الشِّبَع.

وقال عُقْبَةُ الراسبيُّ: دخلتُ على الحسن وهو يتغدَّى، فقال: هلُمَّ، فقلتُ: أكلتُ حتى لا أستطيع، فقال: سبحانَ الله أوَ يأكلُ المسلمُ حتى لا يستطيع أن يأكل؟!

ومقامُ العدلِ في الأكل رفع اليدين مع بقاءِ شيء من الشهوةِ، فالأكل في مقام العدلِ يُصِحُّ البدنَ وينفي المرض، وذلك أن لا يتناول الطعام حتى يشتهيه، ثُمَّ يرفع يدَهُ وهو يشْتهيه، والدوام على التقلُّل من الطعام يُضعف القُوىٰ، وقد قلَّل أقوامٌ مطاعمَهم حتى قصَّروا عن الفرائض، وظنُّوا بجهلهم أن ذلك فضيلة، وليس كذلك، ومن مدح الجوعَ فإنَّما أشار إلى الحالة المتوسِّطة التي ذكرناها»[1].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين. ص ١٦٣.

ومدارُ الأمرِ على أخذِ النفس بِالْوَرعِ في كلِّ حين وحالٍ، والْوَرَعُ من منازل السَّائـرِينَ إلى الله تعالى، يقـول ابن القيم رحمـه الله: «وقـد جمـع النبي ﷺ الورعَ كلَّه في كلمةٍ واحدةٍ، فقال: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تركُـهُ ما لَا يَعْنِيهِ**»[1]. فهذا يعمُّ التـرك لما لا يعني: من الكلامِ، والنظرِ، والاستماعِ، والبطشِ، والمشي، والفكرِ، وسائر الحركاتِ الظاهرةِ والباطنةِ. فهذه الكلمة كافيةٌ شافيةٌ في الْوَرَع.

وقال إبراهيم بن أدهم: الْـورعُ تركُ كـلِّ شُبْهةٍ، وتركُ ما لا يعنيك هو تركُ الفضلاتِ»[2].

---

(1) قال في «شرح السنة»: إسناده صحيحٌ لكنَّه مرسلٌ. رواه مالك في «الموطَّأ» (٢/ ٤٧٠) في «حُسْنِ الخُلُقِ» [شرح السنة. جـ ١٤ ص ٣٢١].
وكـذا صحَّحـه الألبـاني في «مشكـاة المصـابيـح» جـ ٣ ص ١٣٦١.

(2) مدارج السالكين. جـ ٢ ص ٢١

قلتُ: ومِلاكُ الْوَرَع تَـرْكُ الشُّبُهاتِ، وقـد حضَّ على ذلك رسولُ اللَّهِ ﷺ فيما رواه عنه الشيخـان عن النُّعْمَانِ بن بشيرٍ رضي الله عنه قال: قـال النبيُّ ﷺ: **«الْحَلَالُ بَيِّنٌ، والْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهـةٌ، فَمَنْ ترك ما شُبِّهَ عَلَيهِ مِنَ الإِثْمِ كَانَ لِمَا اسْتَبَانَ أَتْرَك، وَمَنْ اجْتَرَأَ عَلَى مَا يَشُكُّ فِيهِ مِنَ الإِثْمِ أَوْشَكَ أَنْ يُوَاقِعَ مَـا اسْتَبَانَ. وَالْمَعَـاصِي حِمَى اللَّهِ، مَنْ يَرْتَـعْ حَـوْلَ الْحِمَى يُـوشِـكْ أَنْ يُـوَاقِعَـهُ»**. متفق عليـه واللفظ للبخاري.

قال البغويُّ ـ رحمه الله ـ: «هذا الحـديث أصلٌ في الورع، وهو أنَّ مـا اشتبه على الـرَّجُلِ أمـرُهُ في التحليل والتحريم، ولا يُعرف له أصلٌ متقدِّمٌ، فالورع أن يجتنبه، ويتركه، فإنَّه إذا لـم يجتنبه، واستمرَّ عليه، واعتاده، جَرَّه ذلـك إلى الوقـوع في الحرام، وجملةُ الشُّبَهِ العارِضَـةِ في الأمور قسمـان: أحدهمـا: ما لا يُعرف له أصلٌ في تحليلٍ ولا تحريمٍ، فالورعُ تركه.

والثاني: أن يكون له أصلٌ في التحليل أو التحريم، فعليه التمسُّكُ بالأصل، ولا ينزل عنه إلاَّ بيقين علمٍ، وذلك مثل الرجل يتطهَّرُ للصلاة ثمَّ يشكُّ في الحدث، فإنَّه يُصلي ما لم يعلم الحدث يقيناً، وكذلك الماء يجده في الفلاةِ يشكُّ في نجاسته، فهو على الأصل من الطهارة، فعليه التمسُّكُ به حتى لا يقع في الوسواسِ»[1].

وقال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «قوله: «**الحلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ**»، فيه تقسيم الأحكام إلى ثلاثة أشياء، لأنَّ الشيء إمَّا أن يُنَصَّ على طلبه مع الوعيد على تَرْكِهِ، أو يُنَصَّ على تركه مع الوعيدِ على فعله، أوْ لا يُنَصَّ على واحدٍ منهما. فالأولُ: الحلالُ البَيِّنُ، والثاني: الحرامُ البيِّنُ، فمعنى قوله: «**الْحَلَالُ بَيِّنٌ**» أي: لا يُحتاج إلى بيانه، ويشترك في معرفته كلُّ أحدٍ.

(١) شرح السنَّة. جـ ٨ ص ١٥.

والثالثُ: مُشْتَبَهٌ لخفائه، فلا يُدرى هل هو حـلالٌ أو حرامٌ، وما كان هذا سبيله ينبغي اجتنابه؛ لأنَّه إن كان في نفس الأمر حراماً فقد بَرِيءَ من تَبِعَتِه، وإن كـان حلالاً فقد أُجرَ على تركه بهذا القصد»[1].

«فعلى طالب العلمِ أن يأخذ نفسه بـالورعِ في جميع شأنه، ويتحرَّى الحلال في طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه، وفي جميع ما يحتاج إليه هو وعيالُه، ليستنير قلبُهُ، ويصلح لقبول العلمِ ونورهِ والنفع به.

ولا يقنع لنفسه بظاهر الحِـلِّ شرعـاً مهما أمكنـه التورُّعُ، ولم تُلْجِئْهُ حاجةٌ، أو يجعل حَظَّهُ الجواز، بل يطلبُ الرتبةَ العاليةَ.

ويقتـدي بمَنْ سَلَفَ من العلمـاءِ الصـالحين في التورُّع عن كثيرٍ ممَّا كانـوا يُفْتُونَ بجـوازه، وأحقُّ مَنْ اقْتُدِيَ به في ذلك نبيُّنا محمدٌ رسولُ الله ﷺ حيث لم

---

(١) فتح الباري. جـ ٤ ص ٣٤١.

يأكل التمرة التي وجدها في الطريق خشية أن تكون من الصَّدَقَة، مع بُعْدِ كونها منها، ولأنَّ أهل العلمِ يُقْتَدَى بهم ويُؤْخَــذُ عنهم، فـإذا لم يستعملوا الــورعَ فَمَنْ يستعمله؟؟»[1].

أخرج الشيخان عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: **«مَرَّ النَّبيُّ ﷺ بِتَمْرَةٍ مَسْقُـوطَةٍ فقَـالَ: لَوْلا أنْ تكُـون صَدَقَةً لأكَلْتُهَا»** واللفظ للبخاري.

وأخرجا عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رَسُولُ اللَّهُ ﷺ: **«إنِّي لأنْقَلِبُ إلَى أهْلِي فَأجِـدُ التَّمْرَةَ سَاقِطَةً عَلَى فِرَاشِي، ثُمَّ أرْفَعُهَا لآكُلَهَا، ثُمَّ أخْشَى أنْ تكُونَ صَدَقَةً فَأُلْقِيهَا»**.

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «قوله: **«مَسْقُوطَة»**، قال ابن التَّيميِّ: قوله: **«مَسْقُوطَة»** كلمةٌ غـريبةٌ، لأنَّ المشهور أنَّ سَقَطَ لازمٌ، والعرب قد تذكر الفاعل بلفظ

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم ص ٧٥.

المفعول؛ واستشهد له الخطّابيّ بقوله تعالى: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١]، أي: آتياً، وقال ابن التين: «مَسْقُوطَةٌ» بمعنى ساقطةٌ كقوله: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥]، أي: سَاتِراً.

وذِكْرُ النبيِّ ﷺ تعيين المحلِّ الذي رأى فيه التمرة وهو فِرَاشُهُ ﷺ، ومع ذلك لم يأكلها، أَبْلَغُ في الورعِ»[1].

وقال النوويُّ - رحمه الله -: «في الحديث استعمالُ الْوَرَعِ، لأنَّ هذه التمرةَ لا تَحْرُمُ بمجرَّدِ الاحتمال، ولكن الورع تركها»[2].

قلتُ: وأهمُّ ما يلزمُ طالبَ العلمِ من أمْرٍ، إدْمَانُ ذِكْرِ الله عزَّ وجلَّ في كلِّ حالٍ وحين؛ فإنَّ الذكرَ هو

---

(١) فتح الباري. جـ ٤ ص ٣٤٤.
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم. جـ ٧ ص ١٧٧.

بابُ الفتحِ الأعظمِ، وسبيلُ الوصولِ الأقـومِ، ومَنْ صَدَفَ عنه فقد حُرِمَ الخيرَ كلَّه وسار على غير سبيل، ومَنْ وُفِّقَ إليه فقد هُدِيَ إلى الرشد وقاده خيرُ دليل.

قـال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «الإقبـالُ على الله تعالى والإنابةُ إليه، والرضاءُ به وعنه، وامتلاءُ القلب من محبَّته، واللهجُ بذكره، والفرحُ والسرورُ بمعرفته، ثوابٌ عاجلٌ، وجنَّةٌ وعيشٌ لا نِسْبَةَ لعيشِ الملوك إليه الْبَتَّة.

وسمعتُ شيخَ الإسلامِ ابن تيميَّة قدَّس اللَّهُ روحه يقول: إنَّ في الدنيا جنَّةً مَنْ لم يدخلها لا يدخل جنَّةَ الآخرة. وقال لي مَرَّةً: ما يصنعُ أعدائي بي؟؟ أنا جنَّتي وبستاني في صدري، أنَّى رُحْتُ فهي معي لا تفارقني، إنَّ حبسي خَلوةٌ، وقتلي شهادةٌ، وإخراجي من بلدي سّياحةٌ.

وَعَلِمَ اللَّهُ ما رأيتُ أحداً أطيبَ عيشاً منه قطُّ، مع ما كان فيه من ضيقِ العيشِ وخلافِ الرفاهية والنعيم

بـل ضدّهـا، ومع مـا كان فيـه من الحبس وَالتهديـدِ والإرهـاق، وهـو مـع ذلـك من أطيبِ النَّـاسِ عَيشـاً وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرِّهم نفْساً، تلوحُ نضرةُ النعيم على وجهه.

وكنّـا إذا اشتدَّ بنـا الخوف وسـاءت منّا الـظنـون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلاَّ أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كلُّه وينقلب انشـراحاً وقـوة ويقيناً وطُمأنينةً فسبحانْ مَنْ أشهد عبادَهُ جَنَّتَه قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من رَوْحِهَا ونسيمها وطِيْبهَا ما استفرغ قواهم لِطَلَبِها والمسابقةِ إليها.

وكان بعضُ العارفين يقول: لو علم الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحن فيه لجـالدونـا عليه بـالسيوف. وقـال آخر: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيبَ ما فيها! قيل: ما أطيب ما فيها؟ قال: محبَّةُ اللَّهِ ومعرفتُهُ وذِكْرُهُ.

فمحبَّةُ الله تعالى ومعرفتُه ودوامُ ذِكْرِهِ والسكونُ إليهِ

والـطمأنينـة إليه، وإفـرادَهَ بالحبِّ والخـوف والرجـاء والتوكل والمعاملة بحيث يكون هـو وحده المستـولي على همـوم العبد وعـرفانِـهِ وإرادته، هـو جنَّةُ الـدنيا والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو قرَّةُ عين المحبِّين، وحياةُ العارفين»[١].

«وحضـرتُ شيخَ الإسـلام ابن تيميَّـة مَـرَّةً صلَّى الفجرَ ثُمَّ جلس يذكر الله تعالى إلى قريبٍ من منتصف النَّهارِ، ثُمَّ التفتَ إليَّ وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغدَّ الغداءَ سقطت قوَّتي، أو كلاماً قريباً من هذا، وقال لي مَرَّةً: لا أترك الذِّكْرَ إلَّا بِنِيَّـةِ إجْمَامِ نفسي وإراحتهـا لأستعدَّ بتلك الراحة لِذِكْـرٍ آخر أو كـلاماً قـريباً هـذا معناه»[٢].

«ولا ريب أنَّ القلب يصـدأ كما يصـدأ النحاسُ

(١) الوابل الصيب. ص ٤٤.
(٢) الوابل الصيب. ص ٣٩.

والفضة وغيرهما، وجِلاؤه بالذكـرِ، فإنـه يجلوه حتى يدعه كالمرآةِ البيضـاءِ، فإذا تـرك صدِىء، فـإذا ذكر جلاه.

وصدأ القلبِ بأمرين؛ بالغفلة والـذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذِّكْرِ، فَمنْ كـانت غفلتُه أغلبَ أوقاتِهِ كان الصدأ متراكِباً على قلبـه، وصَدَؤُهُ بحسب غفلتـه، وإذا صـدىء القلبُ لم تنـطبـع فيـه صـورةُ المعلومات على ما هي عليه، فيرى الباطلَ في صورة الحقِّ، والحقَّ في صورةِ الباطلِ، لأنَّه لما تراكم عليه الصدأ أظلمَ فلم تظهـر فيه صـورةُ الحقائق كمـا هي عليه، فإذا تراكـم الصدأ عليه واسودَّ وركبه الرَّانُ، فَسَدَ تَصَوُّرُهُ وإدراكَهُ فلا يقبل حقّاً ولا ينكر باطـلاً، وهـذا أعظم عقوبات القلب.

وأصـل ذلك من الغفلة واتبـاع الهوى؛ فـإنهمـا يطمسان نورَ القلب ويعميان بصره، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ

فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨]، فإذا أراد العبدُ أن يقتدي برجل فلينظر: هل هو من أهل الذكرِ أو من الغافلين؟ وهل الحاكمُ عليه الهوى أو الوحي؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة كان أمره فُرُطاً، ومعنى الفُرُطِ قد فُسِّرَ بالتضييعِ، أي: أَمْرُهُ الذي يجب أن يَلْزَمَهُ ويقومَ به، وبه رُشْدُهُ وفَلَاحُهُ ضائعٌ قد فرط عليه، وفُسِّرَ بالإسرافِ أي: قد أفرط، وفُسِّرِ بالإهلاكِ، وفُسِّرَ بالخلاف للحقِّ، وكلها أقوالٌ متقاربةٌ، والمقصود أنَّ الله سبحانه وتعالى نهى عن طاعةِ مَنْ جَمَعَ هذه الصفاتِ، فينبغي للرجل أن ينظر في شَيخِهِ وقدوتِهِ ومتبوعِهِ فإن وجده كذلك فَلْيَبْعُد عنه، وإن وجده ممَّنْ غلب عليه ذكر الله تعالى واتباع السنَّة وأَمْرُهُ غير مفروطٍ عليه بل هو حازمٌ في أمره، فَلْيَسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، ولا فرقَ بين الحيِّ والميت إلَّا بالذكر، فمثل الذي يذكر ربَّه والذي لا يذكر ربَّه كمثل الحيِّ والميت»[1].

---

(١) الوابل الصيب. ص ٣٧.

وكان شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله يقول: «ربَّما طالعتُ على الآيةِ الواحدةِ مائة تفسيرٍ، ثمَّ أسأل الله الفهمَ، وأقول: يا مُعَلِّمَ آدم وإبراهيمَ علِّمني. وكنت أذهبُ إلى المساجد المهجورة ونحوها، وأمَرِّغُ وجهي في التراب، وأسأل الله تعالى وأقول: يا مُعَلِّمَ إبراهيم علِّمني»[1].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَثلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ والْمَيِّت»**. رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري. ولفظ مسلم: **«مَثلُ الْبَيتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللَّهُ فيه، وَالْبَيْتِ الَّذي لاَ يُذْكَرُ اللَّهُ فِيه مَثلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّت»**.

قال الشوكانيُّ رحمه الله: «وفي هذا التمثيل مَنْقَبَةٌ للذاكر جليلةٌ، وفضيلةٌ له نبيلةٌ، وأنَّه بما يقع منه من

---

(١) مقدمة تفسير سورة الإخلاص. ص ٦.

ذكر الله عزَّ وجل في حياةٍ ذاتيةٍ وروحيةٍ لما يغشاه من الأنوار، ويصل إليه من الأجور، كما أنَّ التارك للذكر، وإنْ كان في حياةٍ ذاتيةٍ فليس لها اعتبار، بل هو شبيهٌ بالأموات الذين لا يفيض عليهم بشيء ممَّا يفيض على الأحياء المشغولين بالطاعة لله عزَّ وجلَّ، ومثل ما في هذا الحديث قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، والمعنى تشبيهُ الكافرِ بالميِّتِ، وتشبيهُ الهدايةِ إلى الإسلامِ بالحياة»[1].

وقد بَوَّب البخاري رحمه الله في «صحيحه» باب: فَضْلِ ذِكْرِ الله عزَّ وجلَّ، ذكر فيه حديثَ أبي موسى المتقدِّم وحديث أبي هريرة الذي يقول فيه: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لله مَلاَئِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ الله تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إلى حَاجَتِكُمْ، قَالَ: فَيَحُفُّونَهُمْ

---

(١) تحفة الذاكرين. ص ١٥.

بِأَجْنِحَتِهِمْ إلى السَّمَاءِ الـدُّنْيَا، قَـالَ: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ ـ عزَّ وجلَّ ـ وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ: مَا يَقُـولُ عِبَادِي؟ قَـالَ: يَقُـولُـون: يُسَبِّحُـونَك وَيُكَبِّـرُونَك وَيَحْمَـدُونَك وَيُمَجِّدُونك. قَالَ: هَلْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: فيقُولُون: لَا، وَالله مَا رَأَوْك. قَالَ: فَيَقُولُ: كَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ قَـالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَـك عِبَادَةً، وَأَشَـدَّ لَكَ تَمْجِيـداً، وَأَكْثَـر لَـكَ تَسْبِيحـاً. قَـالَ: يَقُـولُ: فَمَـا يَسْأَلُونِي: قال: يَقُولُونَ: يَسْأَلُونك الْجَنَّة. قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَا، وَالله يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا. قَالَ: فَيَقُولُ: كَيْفَ لَو رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُون: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرصاً، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَباً، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً. قَالَ: فَمِمَّ يَتعَوَّذُون؟ قَالَ: يَقُولُـونَ: مِنَ النَّارِ. قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا ؟ قَالَ: يَقُولُون: لَا وَالله يَارَبِّ مَا رَأَوْهَا. قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَـا؟ قَالَ: يَقُولُون: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِراراً، وَأَشَدَّ لَهَا مَخافَةً. قَالَ: فيقُولُ: فَأُشْهِدُكُـمْ أَنِّي قَدْ غَفَـرتُ

لَهُمْ. قَالَ: يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ: فِيهِمْ فُلاَنٌ لَيْس مِنْهُمْ، إنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ. قَالَ: هُمُ الْجُلَسَاءُ لاَ يَشْقَى جَلِيسُهُمْ».

قال الحافظُ رحمه الله في «الفتح»: «قوله»: «باب ذكر الله عز وجل»، المراد بالذِّكْرِ هنا: الإتيان بالألفاظ التي ورد الترغيبُ في قولها والإكثار منها، مثل الباقيات الصالحات وهي: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر» وما يلتحق بها من الحوقلة[1] والبسملة والحسبلة[2] والاستغفار ونحو ذلك، والدعاء بخيري الدنيا والآخرة.

ويُطلق ذكر الله أيضاً ويُرادُ به المواظبةُ على العمل بما أوجبه الله أو نَدَبَ إليه؛ كتلاوةِ القرآنِ، وقراءةِ الحديث، ومدارسة العلمِ، والتنفُّلِ بالصلاة، ثمَّ

---

(١) هي قول: لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

(٢) هي قول: حسبنا الله ونعم الوكيل.

الذكر يقع تارةً باللسان ويُؤجر عليه الناطقُ ولا يُشترط استحضاره لمعناه، ولكن يُشترط أن لا يقصد بـه غير معنـاه، وإن انضاف إلى النـطقِ الذِّكْـرُ بـالقلبِ فهـو أكمل، فإن انضاف إلى ذلك استحضار معنى الذكر وما اشتمل عليه من تعظيم الله تعالى ونفي النقـائص عنه ازداد كمالاً، فإن وقـع ذلك في عمـلٍ صالـحٍ مهما فُرِضَ من صلاةٍ أو جهادٍ أو غيرهما ازداد كمالاً، فإن صحَّـح التوجُّـه وأخلص لله تعالى في ذلـك فهو أبلغ الكمال»(١).

قلتُ: وأمَّا رواية مسلم رحمه الله: «**مَثَلُ الْبَيْتِ الْذِي يُذْكَرُ اللَّهُ فِيهِ، وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذْكَرُ اللَّهُ فِيهِ مَثَلُ الْحَيِّ والْمَيِّتِ**». فقد قال الحافظ رحمه الله: «الـذي يوصف بالحياة والموت حقيقةً هو الساكنُ لا السَّكَنُ، وإطلاقُ الحيِّ والميِّتِ في وصف البيت إنَّما يُـراد به ساكن البيت، فشبَّه الذاكر بالحيِّ الذي ظاهره متزيِّنٌ

(١) فتح الباري. جـ ١١ ص ٢١٢.

بنور الحياةِ وباطنه بنور المعرفة، وغيرَ الذاكرِ بالبيتِ الذي ظاهرُهُ عاطلٌ وباطنُهُ باطلٌ، وقيل: موقع التشبيه بالحيِّ والميِّتِ لما في الحيِّ من النفع لمن يواليه، والضرِّ لمن يعاديه، وليس ذلك في الميت»[1].

قلتُ: فأحقُّ مَنْ استمسك بِعُرْوَةِ الذِّكْرِ الوثقىٰ أهلُ العلمِ وطلَبَتُهُ، وإنَّهم ليسيرون به سيراً حثيثاً مُوَفَّقاً، وبغيره تتعثَّرُ الأقْدَامُ وتصدأ القلوبُ وتتشابَهُ السُّبُلُ، كما قيل:

إذا مَرِضْنَا تداوَيْنَا بِذكْرِكُمُ
وَنتْرُكُ الذِّكْرَ أحْيَاناً فَنَنْتَكِسُ

(١) فتح الباري. جـ ١١ ص ٢١٤.

٥

تَقْلِيلُ الطَّعَامِ وَالمَنَامِ وَالكلامِ مَا أمْكن

تقدَّمَ الكلامُ على أنَّ طالبَ العلمِ ينبغي أن يكون مطعمه حلالاً يسيراً، «وطريقُ الرياضة في كَسْرِ شهوة البطنِ أنَّ مَنْ تعوَّد استدامَةَ الشَّبَعِ، فينبغي أن يُقلِّلَ من مطعمه يسيراً مع الزمان، إلى أن يقف على حدِّ التوسُّط، وخير الأمور أوساطها، فالأولى تناول ما لا يمنع من العبادات، ويكون سبباً لبقاء القوة، فلا يحسُّ المتناولُ بجوعٍ ولا شِبَعٍ، فحينئذٍ يصحُّ البدن، وتجتمع الهمَّةُ، ويصفو الفكر، ومتى زاد في الأكل أورثه كثرة النومِ، وبلادة الذهن»[1].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين. ص ١٦٣.

وأمَّا كونُ الطعامِ حلالاً فهو أمرٌ مطلوبٌ من كلِّ مسلمٍ، وهو في حقِّ طالبِ العلم آكدُ؛ إذ طالب العلم هو مَظَنَّةُ العلم بما يحلُّ وما يحرم، وقد تقدَّم الكلامُ على الورع في المطعمِ والمشربِ، وكيف أحجم النبي ﷺ عن تمرةٍ وجدها على فراشه مخافة أن تكون من تمرِ الصَّدَقَةِ، والصَّدَقَةُ غير جائزةٍ له ﷺ.

فطالبُ العلمِ مشغولٌ بما هو فيه من الطلب والتحصيل عن التفكير في المطعمِ والمشربِ، ومَنْ شفَّهُ الوجدُ لم يكن سميناً وأنساه الهوى كثرة الأكل، وهذا شيخُ الإسلامِ ابن تيمية: «ما سُمِعَ أنَّه طلبَ طعاماً قطُّ، لا عشاءً ولا غداءً، ولو بقي مهما بقي لشدَّة اشتغاله بما هو فيه من العلمِ والعمل، بل كان ربَّما يُؤتَى بالطعام وربَّما يُترك عنده فيبقى زماناً حتى يلتفت إليه، وإذا أكل يأكل شيئاً يسيراً، وما ذكر من ملاذِّ الدنيا ونعيمها، ولا كان يخوض في شيءٍ من حديثها ولا يسأل عن شيءٍ من معيشتها، بل جُلُّ هَمِّه وحديثِهِ في

طلب الآخــرة، ومــا يقــرِّبُ إلى الله تعــالى»[1].

وعن النُّعْمَانِ بن بشيرٍ، رضي اللَّهُ عنهما، قال: ذكر عُمَرُ بنُ الخطَّابِ، رضي الله عنه، مَا أصابَ النَّاسُ مِنَ الدُّنْيا، فقَالَ: لَقدْ رَأيتُ رَسُولَ الله ﷺ، يَظَلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي مَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ مَا يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ. رواه مسلم.
والدَّقَلُ: بفتح الدال المهملة والقاف: رَدِيءُ التَّمْرِ.

وعن أبي سعيد الْمَقْبُرِيِّ عن أبي هُرَيْرَة رضي الله عنه، أنَّه مَرَّ بِقَوْم بين أيْديهِمْ شاةٌ مَصْلِيَّةٌ، فَدَعَوْهُ فَأبى أنْ يأكُلَ، وَقَالَ: خرج رَسُولُ الله ﷺ من الدُّنْيَـا وَلَمْ يَشْبَعْ مِنْ خُبْزِ الشَّعير. رواه البخاري.
ومَصْلِيَّةٌ بفتح الميم أي مَشْوِيَّةٌ.

وعن أنس رضي اللَّهُ عنه قالَ: لَمْ يَأكُل النَّبيُّ ﷺ على خِـوانٍ حَتَّى مات، ومَـا أكَلَ خُبْـزاً مُرقَّقـاً حَتَّى

---

(١) غاية الأماني: جـ ٢ ص ١٧٣.

مَـات». رواه البخاري، وفي روايـة له: ولا رَأى شـاةً سَمِيطاً بِعَيْنيه قطُّ.

الخِوَانُ: المائدة ما لم يكن عليها طعام.

مُرَقَّقاً: مُحَسَّناً مُلَيَّناً، والترقيق: التليين.

السَّمِيْطُ: هو ما أزيل شعره بماءٍ ساخنٍ، وشُويَ جِلْدُهُ، وإنَّما يُفعل ذلك بصغير السِّنِّ، وهو من فِعْلِ المُترفين.

وأمَّا المنامُ، «فعلى طَالِبِ العلمِ أن يُقَلِّلَ منه مـا لم يلحقه ضررٌ في بدنه وذهنه، ولا يزيد في نومه في اليوم والليلة على ثماني ساعاتٍ، وهو ثُلُثُ الـزمانِ، فـإن احتمل حالُهُ أقلَّ منها فعل»[1].

قال الزَّرْنُوجِيُّ رحمه الله: «دخل الحسنُ بن زياد، رحمه الله، في التَّفقُّهِ، وهو ابن ثمانين سنة، ولم يبتْ على فراشه أربعين سنة.

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم. ص ٧٧.

وكان محمدُ بن الحسن الشيبانيُّ، رحمه الله، لا ينام الليل، وكان يضع عنده دَفَاتِرَهُ، وكان إذا ملَّ من نوعٍ ينظر في نوعٍ آخر، وكان يضع عنده كأسَ الماء، ويزيل نومَهُ بالماء، وكان يقول: إنَّ النوم من الحرارة، فلا بدَّ من دفعه بالماء البارد[1].

وعن أبي هُريرة رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ قال: «**يَعقدُ الشَّيطانَ عَلى قَافِيَةِ رَأسِ أَحَدِكُمْ إذَا هُو نام ثلاث عُقد، يَضْربُ عَلَى مَكَانِ كُلِّ عُقْدةٍ، عَلَيْك لَيْلٌ طَويلٌ فَارْقُدْ. فإذا اسْتيقظ فَذكر الله انْحَلَّتْ عُقْدةٌ، فإنْ توضَّأ انْحَلَّتْ عُقْدةٌ، فَإنْ صلَّى انحلَّتْ عُقْدةٌ، فَأصْبح نشِيْطاً طَيِّبَ النَّفْس وَإلاَّ أَصْبَحَ خبيثَ النَّفْس كسْلان**». متفق عليه.

القافية: آخرُ الرأس، وقافية كلِّ شيء آخره، ومنه قافية الشِّعْر.

---

(١) تعليم المتعلم طرق التعلُّم. ص ٢٣.

وعن عبدِالله بن مسعودٍ رضي اللَّهُ عنه قال: «**ذُكِر عِنْد النَبيِّ ﷺ رجُلٌ، فَقيلَ: مَا زَالَ نائِماً حَتَّى أصْبَحَ، مَا قَامَ إلى الصَّلاة، فَقَالَ: بَالَ الشَّيطانُ في أُذُنِهِ**». متفق عليه.

وقد مدحَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ المتقين وَوَصَفَهُمْ بالإحسانِ، وبأنَّهم كانوا لا ينامون من الليل إلَّا قليلاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٩].

قال ابن كثير رحمه الله: قوله تعالى: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾، أي: إن المتقين في حال كونهم في الجنَّاتِ والعيون، آخذين ما آتاهم ربُّهُمْ، أي: من النعيم والسرور والغبطة، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟

﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أي في الدار الدنيا، ﴿مُحْسِنِينَ﴾ كقوله جلَّ جلاله: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، ثم إنَّه تعالى بيَّن إحسانهم في العمل فقال جلَّ وعلا: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ واختيار ابن جرير - رحمه الله -: أنَّ ﴿مَا﴾ مصدرية، وتقديره: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ونومهم، وقال الحسن البصري رحمه الله: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ كابدوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلاَّ أقلَّه ونشطوا فَجدُّوا إلى السَّحَرِ حتى كان الاستغفار بِسَحَرٍ.

وقال قتادةُ: قال الأحنف بن قيس: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، كانوا لا ينامون إلاَّ قليلاً، ثم يقول: لست من أهل هذه الآية.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وإبراهيم

النخعيُّ: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾.
ينامون[1].

وقال السعديُّ رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟﴾ أي المحسنون، ﴿قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ أي كان هجوعهم أي نومهم بالليل قليلاً، وأمّا أكثر الليل فإنهم قانتون لربِّهم ما بين صلاةٍ وقراءةٍ وذكرٍ ودعاءٍ وتضرُّعٍ ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ﴾ التي قبيل الفجر ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الله تعالى، فمدُّوا صلاتهم إلى السَّحَرِ، ثمَّ جلسوا في خاتمة قيامهم بالليل يستغفرون الله تعالى استغفار المذنب لذنبه»[2].

وخلاصة القول أنَّ كثرة النوم ليست من شأن طَلَبَةِ العلم، ولا هم منها بسبب قريبٍ أو بعيدٍ، بل شأنهم

(١) تفسير ابن كثير. جـ ٤ ص ٢٣٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن. جـ ٨ ص ٢٣.

الجدُّ والحرصُ، ولن يشبع مؤمنٌ من خيرٍ حتى يكون منتهاه الجنَّة.

وأمَّا تقليلُ الكلام فقد قـال النبيُّ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤمنُ بالله وَالْيَوْمِ الآخِر، فَلْيَقُلْ خَيـراً أوْ ليصْمُتْ». متفق عليه.

قال النوويُّ رحمه الله: «قال أهل اللغة: صمت يَصْمُتُ بضم الميم صمتـاً وصمـوتـاً وصمـاتـاً أي: سكت. وقوله ﷺ: «فَلْيَقُلْ خيْراً أوْ لِيَصْمُتْ». معناه: أنَّه إذا أراد أن يتكلَّم، فإن كان ما يتكلَّم به خيراً محقَّقاً يثاب عليه؛ واجباً أو مندوباً، فليتكلم، وإن لم يظهر له أنَّه خيرٌ يُثَابُ عليه فليمسك عن الكلام، سواء ظهر له أنَّه حرامٌ أو مكروهٌ أو مباحٌ مستوي الطرفين، فعلى هذا يكون الكلام المباح مأموراً بتركه مندوباً إلى الإمساك عنه؛ مخافة من انجراره إلى المحرَّم أو المكروه، وهذا يقع في العادة كثيراً أو غالباً، وقد أخذ الإمامُ الشافعيُّ رضي الله عنه معنى الحديث فقال: إذا أراد أن يتكلم

فليفكر فإن ظهر له أنَّه لا ضرر عليه تكلَّم، وإنْ ظهر له فيه ضررٌ أوْ شكٌّ فيه أمسك»[1].

وقال ابن حجر رحمه الله: قوله ﷺ: «**فَلْيَقُلْ خيْراً أوْ لِيَصْمُتْ**» بضمِّ الميم ويجوز كسرها، وهذا من جوامع الكلم، لأنَّ القول كلَّه إمَّا خيرٌ، وإمَّا شرّ، وإمَّا آيلٌ إلى أحدهما، فدخل في الخير كلُّ مطلوب من الأقوال فرضها وندبها، فَأذِنَ فيه على اختلاف أنواعه، ودخل فيه ما يؤول إليه، وما عدا ذلك ممَّا هو شرٌّ أو يؤول إليه، فَأمَرَ عند إرادة الخوض فيه بالصمت»[2].

- وقال ابن عبدالبرِّ رحمه الله: «إنَّ من فتنة العالِمِ أن يكون الكلامُ أحبَّ إليه من الاستماع، وهذا القول مرويٌّ عن يزيد بن أبي حبيب وقال: في الاستماع سلامةٌ وزيادةٌ في العلم، والمستمعُ شريكُ المتكلِّمِ،

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم. جـ ٢ ص ١٨.
(٢) فتح الباري. جـ ١٠ ص ٤٦١.

وفي الكلام توهن وتزين وزيادة ونقصان. وقال: إن المتكلِّم لَيَنْتَظِرُ الفتنة، وإن المنصت لَيَنْتَظِرُ الرحمةَ.

وقال أبو الذيال: تَعلَّم الصمت كما تَتَعلَّم الكلام، فإن يكن الكلامُ يهديك فإنَّ الصمتَ يقيك، ولك في الصمت خصلتان: خصْلةٌ تأخذ بها من علمِ مَنْ هو أعلم منك، وخَصْلَةٌ تدفع بها جَهْلَ مَنْ هو أجهلُ منك.

وقال ابن عبد البَرِّ رحمه الله: الكلامُ بالخير غنيمةٌ، وهو أفضل من السكوت، لأنَّ أرفع ما في السكوت السلامةُ، والكلام بالخير غنيمةٌ، وقد قالوا: مَنْ تَكَلَّمَ بخيرٍ غَنِمَ، ومَنْ سكت سَلِمَ، والكلامُ في العلمِ من أفضل الأعمال، وهو يجري عندهم مجرى الذكرِ والتلاوةِ إذا أُريد به نفي الجهلِ ووجه الله عزَّ وجلَّ والوقوف على حقيقة المعاني»[1].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله. ص ١٨٢.

«قال أبو حاتم رحمه الله: طَلَبَ رُجلان العلمَ، فلَّما عَلِمَا صَمَتَ أحدهما وَتَكَلَّمَ الآخر، فكتب المتكلِّمُ إلى الصَّامتِ:

وَمَا شَيءٌ أرَدْتَ بِهِ اكْتِسَاباً
بِأجْمَعَ فِي الْمَعِيْشَةِ مِن لسَانِ

فكتب إليه الصامتُ:

وَمَا شَيءٌ أرَدْتَ بِهِ كَمَالاً
أحَقَّ بِطُول سِجْنٍ مِن لسانِ[1]

«وجاء رَجُلٌ إلى سلمان رضي الله عنه فقال: يا أبا عبدالله أوصني: قال: لا تكلَّم، قال: ما يستطيع مَنْ عاش في النَّاسِ أن لا يتكلَّم. قال: فإن تكلَّمتَ فَتَكَلَّمْ بحقٍّ أو اسكُت. قال: زدني. قال: لا تغضب. قال: أمرتني ألَّا أغضب وإنَّه ليغشاني ما لا أمْلِكُ. قال: فإن غضبتَ فامْلك لسانك ويَدَك. قال: زدني. قال: لا

---

(١) لباب الآداب. ص ٢٧٤.

تُلَابس النَّاس. قال: ما يستطيع مَنْ عاش في الناس أن لا يُلابسَهُم. قال: فإن لابَسْتَهُـمْ فاصدق الحديث وأدِّ الأمانةَ»[١].

«وعن أبي حَيَّان التَّيْميِّ قال: كـان يُقال: ينبغي للرَّجُل أن يكون أحفظ للسانه منه لموضع قدَمِهِ»[٢].

قلتُ: وما ذلك إلَّا لخطرِ اللسانِ وكثرة الكلامِ على قلبِ المؤمن، إذ آفاتُ اللسان كثيرةٌ ومُهْلكَةٌ، وإن كانت واحدةٌ منها لكافية لاستفراغ العمر في التَّوَقِّي منها والحذرِ، ولكنَّ الله يبتلي خَلْقَهُ حتى يعلم المصلحَ من المفسد والأمرُ لله مِنْ قبلُ ومِنْ بَعْدُ.

---

(١) كتاب الصمت وآداب اللسان. ص ٥٥٨.

(٢) كتاب الصمت وآداب اللسان. ص ٢٠٦.



آفات اللِّسَانِ

قال ابن قُدامةَ رحمه الله: «آفـات اللِّسانِ كثيـرةٌ ومتنـوعةٌ، ولهـا في القلب حلاوةٌ، ولهـا بـواعثُ من الطَّبْعِ، ولا نجاة من خطرهـا إلا بالصمت. قـال أبو الدرداء رضي الله عنه: أَنْصِفْ أذنيك من فِيْكَ، فإنَّما جُعِل لك أذنان وفمٌ واحدٌ، لتسمعَ أكثرَ ممَّا تتكلَّم به.

وقال مَخْلَدُ بن الحسين: ما تكلَّمتُ منذ خمسينِ سنةً بكلمةٍ أريد أن أعتذرَ منها.

وأمَّا آفاتُ الكلامِ فهي:

الآفة الأولى: الكلامُ فيما لا يعني:

واعلم أنَّ مَنْ عرف قدر زمانه، وأنَّه رأس ماله، لم يُنفقه إلَّا في فائدةٍ، وهذه المعرفةُ تُوجب حبسَ اللسانِ

عن الكلام فيما لا يعني، لأنَّ مَنْ تَرَكَ ذِكْرَ الله تعالى واشتغل فيما لا يعني، كان كَمَنْ قَدَرَ على أخذ جوهرةٍ فأخذ عِوَضَهَا مَدَرَةً[1]، وهذا خسران العمر.

وقيل لِلُقْمَانَ الحكيم: ما بلغ من حكمتك؟ قال: لا أسأل عمَّا كُفيتُه، ولا أتكلَّم بما لا يعنيني.

وقد روي عن لقمان أنَّـه دخل على داود عليـه السلام وهو يسرد دِرعاً ـ أي: ينسجها ـ فجعل يتعجَّب ممَّا يرى، فأراد أن يسألـه عن ذلك، فَمَنَعَتْـهُ حكمتُه فأمسك، فلمَّا فرغ داودُ عليه السلام، قام ولبس الدرع ثمَّ قال: نِعْمَ الدرع للحرب، فقال لقمـان: الصمتُ حُكْمٌ وقليلٌ فاعلُه.

الآفة الثانيةُ: الْخَوْضُ في الْبَاطِلِ:

وهو الكلامُ في المعاصي، كذكرِ مجالسِ الخمرِ، ومقاماتِ الفسَّاقِ.

---

(١) هو الطينُ اللَّزجُ المتماسك.

وأنواعُ الباطلِ كثيرةٌ، عن أبي هـريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ ممَّا بَيْنَ المشْرِق وَالمَغْرِب**» متفقٌ عليـه، وقريبٌ من ذلـك الجدال والمِـراءُ وهـو كثـرةُ المُـلاَحَـاةِ - أي المنـازعـة - للشخصِ لِبيَـانِ غَلَـطِـهِ وإفحامه، والباعثُ على ذلك التَّرَفُّعُ.

فينبغي للإنسان أن يُنكر المنكرَ من القول، ويبيِّنَ الصوابَ. فإن قُبل منه وإلاَّ ترك المُمَارَاةَ، هذا إذا كان الأمرُ مُعَلَّقاً بالدين، فأمَّا إذا كان من أمور الدنيا، فلا وجه للمجادلـة فيه، وعـلاج هذه الآفـة بكسر الكِبْـرِ البـاعثِ على إظهـارِ الْفَضْـلِ، وأعـظم مِنَ المِـرَاء الخصومةُ، فإنَّها أمرٌ زائدٌ على المِرَاءِ، وهذه الخصومة نعني بها الخصومة بالباطل أو بغيـر علمٍ، فأمَّا مَنْ له حقٌّ فالأولى أن يَصْدِفَ[1] عن الخصومة مهمـا أمكن

---

(١) صدف عن الشيء: أعْرَض عنه.

لأنَّها تُوْغِرُ الصدرَ. وتُهَيِّجُ الغضبَ، وتُورِثُ الحقدَ، وتُخرج إلى تناول العِرض.

الآفة الثالثةُ: التَّقعُّرُ في الكلامِ:

وذلك يكون بالتَّشَدُّق[1]، وتكلُّفِ السَّجْعِ، ولا يدخل في كراهةِ السَّجعِ والتَّصَنُّعِ ألفاظُ الخطيب، والتذكيرُ من غير إفراطٍ، ولا إغرابٍ، لأنَّ المقصود من ذلك تحريكُ القلوب، وتشويقُها، ورشاقة اللفظ ونحو ذلك.

الآفةُ الرَّابِعةُ: الفُحْشُ وَالسَّبُّ وَالْبَذَاءُ:

واعلم أن الفُحشَ والبَذَاءَ هو التعبيرُ عن الأمور المُسْتَقْبَحة بالعبارات الصريحة، ويدخل فيه الغناءُ.

الآفةُ الخامِسَةَ: المِزَاحُ:

واليسير منه لا يُنهى عنه إذا كان صدقاً، فإنَّ النبيَّ ﷺ كان يمزح ولا يقول إلَّا حقاً.

---

(١) هو تكلُّفُ الفصاحة بإخراج الكلام من جانبِ الفمِّ.

وقد اتفق في مزاحه ﷺ ثلاثة أشياء:

أحدهما: كونه حقاً.

والثاني: كونه مع النساء والصبيان، ومَنْ يُحتاج إلى تأديبه من ضعفاء الرجال.

الثالث: كونه نادراً.

الآفةُ السَّادِسَةُ: السُّخْرِيَةُ وَالاسْتِهْزَاءُ:

ومعنى السُّخْرية: الاحتقارُ والاستهانةُ، والتنبيهُ على العيوب والنقائص على وجهٍ يُضْحَكُ منه، قد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء، وكلُّه ممنوعٌ منه في الشرع.

الآفةُ السَّابِعَةُ: إفشاءُ السرِّ، وإخْلافُ الوعدِ، والكذبُ في القول واليمين:

وكلٌّ ذلك منهيٌّ عنه، إلَّا ما رُخِّص فيه من الكذب لزوجته، وفي الحربِ، فإن ذلك يُباحُ.

الآفةُ الثَّامِنَةُ: الْغِيْبَةُ:

ومعنى الغيبة أن تذكر أخاك الغائب بما يكره إذا بلغه، سواءٌ كان نقصاً في بدنه، كالعمشِ، والعَوَرِ، والحَوَلِ، والقَرَعِ، والطُّولِ، والقِصَر، ونحو ذلك، أو في نسبه، كقولك: أبوهُ نِبْطيٌّ، أو هنديٌّ، أو فاسقٌ، أو خسيسٌ، ونحو ذلك.

أو في خُلُقه كقولك: هو سيّء الخُلُقِ، بخيلٌ، متكبِّر، ونحو ذلك.

أو في ثوبه، كقولك: هو طويل الذيل، واسعُ الكُمِّ، وَسِخُ الثيابِ.

والدليلُ على ذلك، أنَّ النبيَّ ﷺ سُئِلَ عن الغِيْبَة فَقَالَ: «ذِكْرُك أخاك بِمَا يَكْرَهُ. قالَ: أرَأَيْتَ إنْ كَانَ فِي أخِي مَا أقُولُ؟؟ قالَ: إنْ كَانَ فِي أخِيكَ مَا تقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإنْ لَمْ يَكُنْ فيهِ مَا تقُولُ فَقَد بَهَتَّهُ. رواه مسلم.

واعلم أنَّ كلَّ ما يُفهم منه مقصود الذَّمِّ، فهو داخلٌ في الغِيبة، سواءٌ كانْ بكلامٍ أو بغيره، كالغَمْزِ، والإشارةِ والكتابة بالقلم، فإنَّ القلمَ أحدُ اللِّسانين.

وأقبح أنواعِ الغِيبَةِ، غِيبةُ المتزهِّدين المرائين، مثل أن يُذكر عندهم إنسانٌ فيقولون: الحمد لله الذي لم يبتلِنا بالدخول على السلطان، والتَّبذُّل في طَلَب الحُطَامِ، أو يقولون: نعوذ بالله من قِلّةِ الحياء، أو نسأل الله العافية، فإنهم يجمعون بين ذَمِّ المذكور، ومدح أنفسهم، وربَّما قال أحدُهم عند ذِكْرِ إنسان: ذاك المسكين قد بُلي بآفة عظيمة تاب اللَّهُ علينا وعليه، فهو يُظهر الدعاءَ ويُخفي قصده.

واعلم أن المستمعَ للغيبة شريكٌ فيها، ولا يتخلَّص من إثم سماعها إلاَّ أن ينكر بلسانه، فإن خاف فبقلبه، وإن قدر على القيامِ أو قَطْعِ الكلامِ بكلامٍ آخرَ، لَزِمَهُ ذلك.

الآفةُ التَّاسعةُ: النَّمِيمةُ:

في الحديث عن النبيِّ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّة قَتَّات». متفقٌ عليه من حديث حذيفة رضي الله عنه.

واعلم أن النَّميمة تُطلقُ في الغالب على قول إنسان في إنسانٍ، مثل أن يقول: قال فيك فلانٌ كذا وكذا، وليست مخصوصةً بهذا، بل حدُّها كشفُ ما يكرهُ كشفهُ، سواءٌ كان من الأقوال أو الأعمال، حتَّى لو رآه يدفُن مالاً لنفسه فذكره، فهو نميمةٌ، وكلُّ مَنْ نُقلت إليه النميمة، مثل أن يُقال له: قال فيك فلانٌ كذا وكذا، أو فعل في حقِّك كذا، ونحو ذلك، فعليه ستَّةُ أشياء:

الأوَّلُ: أن لا يصدِّق النَّاقل، لأنَّ النَّمَّامَ فاسقٌ مردود الشهادة.

الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصحَهُ.

الثالث: أن يبغضَه في الله، فإنَّه بغيضٌ عند الله.

الرابع: أن لا يظنَّ بأخيه الغائب السُّوء.

الخامس: أنْ لا يحملَه ما حُكِيَ له على التَّجسُّس والبحث، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢].

السادس: أن لا يرضى لنفسه ما نهى النَّمَّام عنه، فلا يحكي نميمَتهُ.

الآفةُ العاشرةُ:

كلامُ ذي اللِّسانين الَّـذي يتردَّدُ بين المتعـاديْن، وينقل كلام كلٍّ واحدٍ إلى الآخـر، ويُكَلِّم كل واحـدٍ بكلامٍ يوافقه، أو يَعِدُهُ أن ينصره، أو يثني على الواحد في وجهه ويذمُّه عند الآخر.

وفي الحديث: «إِنَّ شَرَّ النَّاسِ ذُو الْوَجْهَين الذي يَأتي هَؤُلَاء بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاء بِوَجْهٍ». متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الآفةُ الحادية عشرة: المدح، وله آفاتٌ:

منها: مايتعلق بالمادح، ومنها: مايتعلَّق بالممدوح.

فأمَّا آفاتُ المادِحِ، فقد يقول ما لا يتحقّقه، ولا سبيل للاطِّلاعِ عليه، مثل أن يقول: إنَّه وَرِعٌ وزاهدٌ، وقد يفرطُ في المدح فينتهي إلى الكذبِ، وقد يمدح مَنْ ينبغي أن يُذمَّ.

وأمَّا الممدوح، فإنَّه يُحْدِثُ فيه كِبْراً أو إعجاباً، وهما مُهلكان.

الآفةُ الثانية عشرة:

الخطأ في فحوىٰ الكلام فيما يرتبط بأمور الدين، لا سيِّما فيما يتعلَّق بالله تعالى»[1].

فعلى طالبِ العلمِ أن يخزنَ لسانَهُ ويحفظ زمانَهُ، وأن يشغلَ نفسه بالحقِّ فلا تضيع أوقاتُهُ هباءً ويذهب عمرُهُ سُدىً، والموفَّقُ من وَفَّقَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ.

---

(١) مختصر منهاج القاصدين. ص ١٦٦ - ١٧٩ باختصار.

٦

تَرْكُ الْعِشْرَةِ مَا أمْكَنَ وَاخْتيارُ الصَّاحِبِ وَالرَّفِيقِ

تَنَازَعَ الناسُ قديماً في «مسألة» الْخُلْطَةِ والعُزْلَةِ، فاختارَ قَومٌ جانب الخُلْطَةِ مطلقاً ورجَّحوه، واختار قومٌ جانب العُزْلَةِ مطلقاً ورجَّحوه، ولكلٍّ وِجْهَةٌ هو مُوَلِّيها.

وحَسمَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ ـ رحمه الله ـ الأمْرَ وفَصَلَ في النِّزاعِ فقال: «هذه «المسألة» وإن كان النَّاسُ يتنازعون فيها، إمَّا نِزَاعاً كُلِّيَّاً وإمَّا حاليَّاً، فحقيقةُ الأمر أنَّ «الخُلطَة» تارة تكون واجبةً أو مستحبَّةً، والشَّخصُ الواحدُ قد يكون مأموراً بالمخالطة تارة، وبالانفراد تارةً.

وجماع ذلك أن «المخالطة» إن كان فيها تعاونٌ

على الإثم والعدوان فهي منهيٌّ عنها، فالاختلاطُ بالمسلمين في جنس العبادات؛ كالصلوات الخمس والجمعة والعيدين وصلاة الكسوف والاستسقاء ونحو ذلك، هو مِمَّا أمر اللَّهُ به ورسُولُهُ ﷺ.

وكذلك الاختلاطُ بهم في الحجِّ وفي غزوِ الكفَّارِ والخوارج المارقين، وإن كان أئِمَّةُ ذلك فُجَّاراً، وإن كان في تلك الجماعات فُجَّارٌ، وكذلك الاجتماع الذي يزدادُ الْعَبْدُ به إيماناً: إمَّا لانتفاعه به، وإمَّا لنفعه له، ونحو ذلك.

ولا بُدَّ للعبدِ من أوقاتٍ يَنْفَرِدُ بها بنفسه في دعائِهِ وذِكْرِهِ وصلاتِهِ وتفكُّرِهِ ومحاسبةِ نفسِهِ وإصلاحِ قلبِهِ، وما يختصُّ به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره، فهذه يحتاج فيها إلى انفراده بنفسه، إمَّا في بيته، كما قال طاووسُ: «نِعْمَ صومعةُ الرجل بيته، يكُفُّ فيها بصرَهُ ولسانَهُ»، وإمَّا في غير بيته.

فاختيارُ المخالطةِ مطلقاً خطأ، واختيار الانفراد

مطلقاً خطأ، وأمَّا مقدار ما يحتاج إليه كـلُّ إنسانٍ من هذا وهذا، وما هو الأصلحُ لـه في كلٍّ حـالٍ، فهذا يحتاج إلى نَظَرٍ خاصٍّ كما تقدَّمَ.

والأفضلُ يتنوَّعُ «تارةً» بحسب أجناس العبادات، كما أنَّ جنسَ الصَّلاةِ أفضلُ من جنسِ القراءةِ، وجنسَ القراءةِ أفضلُ من جنسِ الذِّكْرِ، وجنسَ الذِّكْرِ أفضلُ من جنسِ الدعاء. وتارةً باختلاف الأوقات، كمـا أنَّ القراءة والذِّكْرَ والدعاءَ بعد الفَجْرِ والعصر هو المشروع دون الصلاة.

وتارةً باختلاف عملِ الإنسـانِ الظاهـرِ، كما أنَّ الذِّكْرَ والدعاء في الركوع والسجودِ هو المشروعُ دون القراءة، وكذلك الذِّكْرُ والدعـاء في الطوافِ مشـروعٌ بالاتفاق، وأمَّا القراءة في الطواف ففيها نزاعٌ معروفٌ.

وتارةً باختلاف الأمكنة، كما أن المشروع بعَـرَفَة ومُزْدَلِفَة وعند الجمَارِ وعند الصَّفا والْمَـرْوة هو الـذِّكْرُ

والدعاءُ دون الصلاة ونحوها، والطواف بالبيت للوارد أفضلُ من الصلاة، والصلاة للمقيمين بمكة أفضل.

وتارةً باختلاف مرتبة جنس العبادة، فالجهادُ للرِّجال أفضلُ من الحَجِّ، وأمَّا النِّساءُ فجهادهنَّ الحَجُّ، والمرأةُ المتزوِّجة طاعتُها لزوجها أفضلُ من طاعتها لأبويها، بخلافِ الأيِّمِ [١] فإنَّها مأمورةٌ بطاعة أبويها.

وتارةً يختلفُ باختلاف حال قُدْرة العبدِ وعجزه؛ فما يقدر عليه من العباداتِ أفضل في حَقِّه ممَّا يعجز عنه، وإن كان جنسُ المعجوزِ عنه أفضل، وهذا بابٌ واسعٌ يغلو فيه كثيرٌ من النَّاس ويتَّبعون أهواءَهم. فإنَّ من النَّاسِ مَنْ يرى أنَّ العملَ إذا كان أفضلَ في حَقِّه لمناسبةٍ له ولكونه أنفعَ لقلبه وأطوعَ لربِّه يريد أن يجعله أفضل لجميع الناس ويأمرهم بمثل ذلك.

---

(١) الأَيِّمُ مِنَ النِّسَاءِ التِي لَا زَوْجَ لَهَا، بِكْراً كَانَتْ أو ثيباً، وَمِنَ الرِّجَالِ الذِي لَا امْرَأَةَ لَهُ، وَالجَمْعُ أَيَامَى وَهُمُ الذِينَ لَا أَزْوَاجَ لَهُمْ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ.

واللَّهُ بعث محمَّداً بالكتابِ والحكمةِ، وجعله رحمةً للعبادِ وهدياً لهم يأمر كل إنسانٍ بما هو أصْلَحُ له، فعلى المسلم أن يكون ناصحاً للمسلمين يقصد لكلِّ إنسانٍ ما هو أصْلَحُ له»[1].

وقد كان الأئِمَّةُ ـ رضي الله عنهم ـ يخالطون النَّاسَ ويعلِّمونهم وهم في ذات الوقت أحرصُ النَّاس على أزمانِهِمْ أن تضيعَ هدراً أو تذهب سُدىً، وكان أحمدُ ـ رضي الله عنه ـ أصبرَ النَّاسِ على الوحدةِ مع كونه إمام الدنيا في وقته رضي الله عنه.

قال عبدالله بن أحمد: «خرج أبي إلى طرسوس ماشياً، وحَجَّ حَجَّتين أو ثلاثاً ماشياً، وكان أصبر النَّاس على الوحدةِ، وبِشْرٌ فيما كان فيه لم يكن يصبر على الوحدةِ، كان يخرجُ إلى ذا وإلى ذا»[2].

---

(١) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيميـة. جـ ١٠ ص ٤٢٥.

(٢) ترجمة الإمام أحمد. ص ١٨.

فـالْعِشْرَةُ والمخـالَطَةُ لا تكـون لميِّتِ القلبِ فهو قاطعُ الطريق، وإنَّما تكون لمَنْ يزيد حالُه في حالِك وعملُه في عملِك.

قـال ابن القيم ـ رحـمــه الله ـ: «مَيِّـتُ الْقـلْبِ يُوحشُك، فَاسْتَأنسْ بِغَيْبَتِهِ مَا أمْكَنَك، فإنَّك لا يُوحِشُك إلَّا حُضُورُهُ عِنْدَك، فـإذا ابْتليت بهِ فَـأعْطِهِ ظَـاهِرَك، وَتَرَحَّلْ عَنْهُ بِقلْبِك، وَفارِقْهُ بِسِرِّك، ولا تُشْغَلْ بهِ عَمَّا هُوَ أوْلى بِك.

واعلم أنَّ الحسرةَ كلَّ الحسـرة الإشتغالُ بمَنْ لا يجُرُّ عليك الاشتغالُ به إلَّا فَوْتَ نصيبك وحَظِّك من الله عـزَّ وجلَّ، وانقـطاعك عنـه، وضياع وقتـك عليـك، وضعف عزيمتك، وتفرُّق همِّك. فإذا ابتليت بهذا ـ ولا بدَّ لك منه ـ فعامِـل الله تعالى فيـه واحتسبْ عليه مـا أمكنك، وتقرَّبْ إلى الله تعالى بمرضاته فيه، واجعل اجتماعك به مَتْجراً لك لا تجعله خسارةً، وكن معـه كرَجُلٍ سائرٍ في طريقه عَرَضَ له رَجُلٌ وَقَفَهُ عن سَيْرِه،

فاجْتهِدْ أن تأخَذهُ معك وتسيرَ بهِ فتحمله ولا يحملك، فإن أبى ولم يكن في سيره مَطْمَعٌ فلا تقف معه ودَعْهُ ولا تلتفت إليه فإنَّه قَاطِعُ الطريق ولو كان مَنْ كان، فانْجُ بقلبك، وضنَّ بيومك وليلتك، ولا تغرب عليك الشمسُ قبل وصول المنزلةِ فَتُؤْخذْ»[1].

«فعلى طالب العلم أن يترك العِشْرة فإنَّ تَرْكَهَا مِنْ أَهَمِّ ما ينبغي لطالب العلم، ولا سيِّما لغير الجنس، وخصوصاً لمَنْ كثُرَ لَعِبُهُ وقَلَّتْ فكرتُهُ؛ فإنَّ الطِّباعَ سَرَّاقةٌ.

وآفة العِشْرةِ ضياعُ العمرِ بغير فائدةٍ، وذهابُ المال والعِرْض إن كانت لغير أهْلٍ، وذهابُ الدين إن كانت لغير أهله.

وينبغي لطالب العلمِ أن لا يُخالِط إلَّا مَنْ يفيده أو يستفيد منه، وإن تعرَّض لِصُحبته مَنْ يضيعُ عمرُهُ معه، ولا يفيده، ولا يستفيد منه، ولا يعينه على ما هو

---

(١) الوابلُ الصيِّبْ. ص ٤٥.

بصدده، فليَتلطفَ في قطعِ عشرته من أول الأمر قبل تمكُّنها، فإنَّ الأمور إذا تمكًّنت عَسُرتْ إزالتُهـا، ومن الجاري على ألْسِنَةِ الفقهاء: الدَّفْعُ أسهل من الرَّفْع.

فإن احتاج إلى مَنْ يصحبه، فلْيكن صاحباً صالحاً دَيِّنـا تقيًّاً وَرِعـاً ذَكيًّاً كثيـر الخيـر قليـلَ الشَّـرِّ، حَسَنَ المُدَارَاةِ قليلَ الْمُمَارَاةِ، إن نسِيَ ذَكَّرهُ وإن ذَكَرَ أعانه، وإن احتاج واساه، وإن ضَجِرَ صَبَّرَهُ»[1].

وقال ابن قدامة ـ رحمه الله تعالى ـ: «واعلم أنَّه لا يصلُحُ للصُّحبةِ كلُّ أحدٍ، ولا بُدَّ أن يتميَّز المصحوبُ بصفاتٍ وخصالٍ يُرغب بسببها في صحبته.

وينبغي أن يكــون فيمَن تُؤثِـر صحبتُـه خمسُ خِصالٍ:

أن يكون عاقلاً، حَسَنَ الخُلُقِ، غير فاسقٍ، ولا مبتدعٍ، ولا حريص على الدنيا.

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم. ص ٨٣.

أمَّا العقلُ فهو رأسُ المالِ، ولا خيرَ في صُحبةِ الأحمقِ، لأنَّه يريد أن ينفعك فَيَضُرُّكَ، ونعني بالعاقلِ الذي يفهم الأمور على ما هي عليه، إمَّا بنفسه، وإمَّا أن يكون بحيث إذا أُفْهِمَ فَهِمَ.

وأمَّا حُسْنُ الخُلُقِ، فلا بُدَّ منه، إذْ رُبَّ عاقلٍ يغلبه غضبٌ أو شهوةٌ فيطيع هواه فلا خير في صُحبته.

وأمَّا الفاسقُ، فإنَّه لا يخافُ الله، ومَنْ لا يخاف الله تعالى لا تُؤْمَنُ غائلَتُه ولا يُوْثَقُ به.

وأمَّا المُبتدِعُ فُيخافُ من صحبته بسراية بدعته.

قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: عليك بإخوان الصِّدقِ تعشْ في أكنافهم، فإنَّهم زينةٌ في الرَّخاء وعدَّةٌ في البلاء، وضع أمرَ أخيك على أحسنه حتى يجيئك ما يقليك منه، واعتزل عدُوَّكَ، واحذر صديقك إلَّا الأمين، ولا أمين إلَّا من يخشى الله، ولا تصحب الفاجر فتتعلَّمَ من فجوره، ولا تُطلعه على

سِرِّك، واستشِرْ في أمرك الذين يخشـون الله تعالىٰ.

قال يحيى بن مُعاذ: بئس الصديقُ تحتاج أن تقول له: اذكرني في دعائك، وأنْ تعيش معه بالمُدارَاةِ، أو تحتاج أن تعتذر إليه.

وقال أبو جعفر لأصحابه: أيُدْخِلُ أحَدُكُمْ يَدَهُ في كُمِّ أخيه فيأخذَ منه ما يريد؟ قالوا: لا، قال: فلستم بإخوان كما تزعمون.

وللأخ على أخيه حقوقٌ بيانُها:

الْحَقُّ الأوَّلُ: قضاءُ الحاجاتِ والقيامُ بها، وذلك درجاتٌ:

أدناها: القيامُ بالحاجةِ عند السؤال والقدرة، ولكن مع البشاشة والاستبشار.

وأوسطها: القيامُ بالحوائج من غير سؤال.

وأعلاها: تقديمُ حوائجه على حوائج نفسه.

الحَقُّ الثَّاني: على اللِّسانِ بالسُّكوتِ تارةً، وبالكلامِ أخرىٰ:

أمَّا السكوتُ، فهو أن يسكت عن ذِكْرِ عيوبه في حضوره وغَيبته، وعن الردِّ عليه، ومماراته ومناقشته، وعن السؤال عمَّا يكره ظهوره من أحواله.

ولا يسأله إذا لَقِيَهُ: إلى أين؟ فربَّما لا يريد إعلامه بذلك، وأن يكتم سرَّهُ ولو بعد القطيعة، ولا يقدح في أَحِبَّائِهِ وأهله، ولا يُبْلِغُهُ قَدْحَ غيره فيه.

الحقُّ الثَّالث: وينبغي أن يسكت عن كلِّ ما يكرهه، إلَّا إذا وجب عليه النطقُ في أمرٍ بمعروفٍ أو نهيٍ عن منكرٍ ولم يجد رخصةً في السكوت، فإنَّ مواجهته بذلك إحسانٌ إليه في المعنى.

واعلم أنَّك إن طلبت مُنَزَّهاً عن كلِّ عيبٍ لم تجد، ومن غلبت محاسنُهُ على مساوئه فهو الغايةُ.

ومتىٰ التمست من الإنصاف ما لا تسمح به دخلتَ

في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين: ٢ - ٣].

واعلم أنَّ من أشدِّ الأسباب إثارةً للحقدِ والحسد بين الإخوان المُمَارَاة، ولا يبعث عليها إلَّا إظهارُ التَّميُّزِ بزيادة الفضل والعقل واحتقار المردود عليه، ومن مارىٰ أخاه، فقد نسبه إلى الجهلِ والحمقِ، أو إلى الغفْلةِ والسَّهْوِ عن فَهْمِ الشيءِ على ما هو عليه، وكلُّ ذلك استحقارٌ، وهو يُوغِرُ الصدرَ ويُوجب المعاداة، وهو ضدُّ الأُخُوَّة.

الحَقُّ الرابع: على اللّسانِ بِالنُّطْقِ، فإنَّ الأخوَّةَ كما تقتضي السكوت عن المكروه، تقتضي النطق بالمحبوب، بل هو أخصُّ بالأُخوةِ، لأنَّ مَنْ قَنع بالسكوت صَحِبَ أهل القبور، وإنَّما يُراد الإخوان ليُستفادَ منهم لا ليُتَخلَّص منهم، لأنَّ السكوت معناه كفّ الأذى، فعليه أن يتودَّدَ إليه بلسانه، ويتفقَّده في

أحـواله، ويسـأل عمَّا عـرض له، ويُـظهر شغـل قلبه بسببه، ويُبدي السرور بما يُسرُّ به.

ومن ذلك أن يدعوه بأحبِّ أسمائه إليه، وأن يثني عليه بما يعرفه من محاسِن أحواله عند مَنْ يُؤْثر الثناء عنده، وكذلك الثناء على أولاده وأهله وأفعاله، حتى في خلقه وعقله وهيئته وخطِّه وتصنيفه وجميع ما يفرح به من غير إفراط ولا كذب.

وكذلك ينبغي أن تُبلِّغَه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح به، فإن إخفاء ذلك مَحْضُ الحسد.

ومن ذلك أن تشكره على صنيعه في حقِّك، وأن تَـذُبَّ عنه في غَيبتـه إذا قُصِـد بسـوء، فحقُّ الأخـوَّةِ التشميرُ في الحماية والنصرةِ.

ومن ذلك التعليمُ والنصيحةُ، فليست حاجةُ أخيك إلى العلم بأقلَّ من حاجته إلى المال، وإذا كنت غنيّاً بالعلم فواسه وأرشده.

وينبغي أن يكون نُصْحُك إيَّاه سرَّاً، والفرقُ بين التوبيخ والنصيحةِ الإعلانُ والإسرارُ، كما أنَّ الفرقَ بين المُدَارَاةِ والمداهنةِ بالغرض الباعث على الإغضاء، فإن أغضيْتَ لسلامةِ دينكَ ولما ترى فيه إصلاح أخيك بالإغضاء، فأنت مُدَارٍ، وإن أغضيتَ لحظِّ نفسِك واجتلابِ شهواتِك وسلامةِ جاهِك فأنت مُدَاهِنٌ.

الحَقُّ الخامسُ: الدعاءُ للأخِ في حياته وبعد موته بكلِّ ما تدعو به لنفسك. وفي أفراد مسلم من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**دَعْوَةُ الْمَرءِ الْمُسْلِم لأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لأخِيهِ بِخْيرٍ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْل**».

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يدعو لخَلْقٍ كثيرٍ من أخوانهِ يُسَمِّيهم بأسمائهم.

وكان أحمد بن حنبل رحمه الله يدعو في السَّحَرِ لستَّةِ نَفَرٍ.

الحَقُّ السادس: الوفاءُ والإخلاصُ.

ومعنى الوفاء: الثباتُ على الحبِّ إلى الموتِ، وبعد موتِ الأخ مع أولاده وأصدقائه. ومن الوفاء أن لا يتغَّير على أخيه في التواضع، وإن ارتفعَ شأنُهُ واتسعت ولايتُه، وعَظُمَ جاهُه.

ومن الوفاءِ أن لا يسمعَ بَلَاغَاتِ النَّاسِ على صديقِهِ، ولا يُصَادقَ عَدُوَّ صديقِهِ.

الحَقُّ السابعُ: التخفيفُ وترك التكلُّفِ.

وذلك أن لا يُكَلِّفَ أخاهُ ما يَشُقُّ عليه، بل يُرَوِّحُ سِرَّه عن مُهمَّاته وحاجاته، ولا يستَمدُّ من جاهِهِ ومالِهِ، ولا يكلِّفه التفقُّدَ لأحواله والقيامَ بحقوقه والتواضعَ لَه، بل يكون قصدُهُ بمحبَّته الله وحده، وتمام التخفيف طيُّ بساطِ الاحتشامِ حتى لا يستحي منه فيما لا يستحي فيه من نفسه.

قال جَعْفَرُ بنُ محمد: أثقل إخواني عَلَيَّ مَنْ

يتكلَّف لي وأتحفَّظ منه، وأخفُّهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي»[1].

فعلى طالِب العلمِ أن يحرص على اجتنابِ مَنْ لا تلزمه خلطته شرعاً حتى يحفظ زمانَهُ، ويرعى قَلْبَهُ، وعليه أن يختار الشريك الذي يعينه على أمر دينه وآخرته، وقد قال الخوارزمي رحمه الله:

لَا تَصْحَبِ الْكَسْلَانَ فِي حَالَاتِهِ
كَمْ صَالِحٍ بِفَسَادِ آخَرَ يَفْسُدُ
عَدْوَى الْبَلِيدِ إِلَى الْجَلِيدِ سَرِيعَةٌ
وَالْجَمْرُ يُوضَعُ فِي الرَّمَادِ فَيَخْمُدُ

---

(١) مختصر منهاج القاصدين: ص ١٢٦ - ١٣٢ بتصرُّف.

٧

اختيارُ الْعِلْمِ وَالشَّيخِ

قال ابن القيِّم رحمه الله: «إنَّ شرفَ العلمِ تابعٌ لشرفِ معلومِهِ، لوثوقِ النفس بأدلَّة وجودِهِ وبراهينه، ولشدَّة الحاجةِ إلى معرفته وعظم النفع بها، ولا ريب أنَّ أجلَّ معلومٍ وأعظَمهُ وأكبَرهُ فهو الله الذي لا إله إلَّا هو ربُّ العالمين، وقيُّومُ السموات والأراضين، المَلكُ الحقُّ المبينُ، الموصوفُ بالكمال كُلِّه، المَنزَّه عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ، وعن كلِّ تمثيل وتشبيهٍ في كماله، ولا ريب أنَّ العلمَ بالله وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجلُّ العلومِ وأفضلُها، ونسبته إلى سائر العلومِ كنسبة معلومه إلى سائر المعلومات، وكما أنَّ العلمَ به أجلُّ العلومِ وأشرفُها، فهو أصلُها كلُّها كما أنَّ كلَّ موجودٍ مُسْتَنِدٌ في وجوده إلى الملكِ الحقِّ المبينِ ومُفْتَقِرٌ إليه

في تحقُّقِ ذاتِهِ. وكلُّ علمٍ فهو تابعٌ للعلم بِهِ مفتقرٌ في تحقُّقِ ذاته إليه، فالعلم به أصل كلِّ علمٍ كما أنَّه سبحانه ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُهُ ومُوجدُه.

ولا ريبَ أنَّ كمالَ العلمِ بالسبب التَّامِّ وكونه سبباً يستلزم العلم بمسبِّبه، كما أنَّ العلمَ بالعِلَّةِ التَّامَّةِ ومعرفةِ كونها عِلَّةً يستلزمُ العلمَ بمعلولها. وكلُّ موجودٍ سوى الله فهو مُسْتَنِدٌ في وجوده إليه استنادَ المصنوع إلى صانِعهِ، والمفعول إلى فاعِلِهِ، فالعلم بذاته سبحانه وصفاته وأفعاله يستلزمُ العلمَ بما سواهُ، فهو في ذاتِهِ ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُهُ، والعلمُ به أصلُ كلِّ علمٍ ومنشؤُه، فَمَنْ عرف الله عرف ما سواه، ومَنْ جَهِلَ رَبَّهُ فهو لما سواه أجهل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، فتأمل هذه الآية تجد تحتها معنىً شريفاً عظيماً، وهو أنَّ مَنْ نسيَ ربَّه أنساه ذاتَهُ ونفسَهُ فلم يعرف حقيقتَهُ ولا مصالحَهُ، بل نسي ما بِهِ صلاحُهُ وفلاحُهُ في معاشِهِ ومعادِهِ فصار

مُعَطّلاً مُهْمَلاً بمنزلةِ الأنعامِ السائبة، بل ربَّما كانت الأنعامُ أخبرَ بمصالحها منه، لبقاءِ هداها الذي أعطاها إيَّاه خالقُها، وأمَّا هذا فخرج عن فطرته التي خُلِقَ عليها، فنسيَ ربَّه فأنساه نفسه وصفاتها وما تكمُلُ به وتزكو به وتسعدُ به في معاشِها ومعادِها، وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨]، فغفل عن ذِكْرِ ربِّهِ فانفرطَ عليه أمرُهُ وقلبُهُ، فلا التفاتَ له إلى مصالحِهِ وكمالِهِ وما تزكو به نفسُهُ وقلبُهُ، بل هو مُشَتَّتُ القلبِ مُضَيَّعُهُ حيران لا يهتدي سبيلاً.

والمقصودُ أنَّ العلمَ باللَّهِ أصلُ كلِّ علمٍ، وهو أصلُ علمِ العبدِ بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته، والجهلُ به مُسْتَلْزِمٌ للْجهلِ بنفسهِ ومصالِحِها وكمالها وما تزكو به وتُفلح به، فالعلم به سعادة العبدِ، والجهلُ به أصل شقاوته.

ولا شيءَ أطيبُ للعبدِ ولا ألذُّ ولا أهْنأ ولا أنْعَمُ

لقلبه وعيشِهِ من محبه فاطره وباريهِ ودوام ذكْرهِ والسعي في مَرْضَاتِهِ، وهذا هو الكمالُ الـذي لا كمالَ للعبـد بدونه، وله خُلِقَ الخلْقُ، ولأجْلِهِ نزل الوحْيُ، وأُرْسِلَت الرسلُ، وقـامت السمواتُ والأرضُ، ووُجـدت الجنَّةُ والنَّارُ، ولأجله شُرعت الشَّرائعُ، ووُضع البيتُ الحرامُ، ووجب حجُّهُ على النَّاس إقامةً لِـذكْرهِ الـذي هو من توابع محبَّتِهِ والرِّضا به وعنه، ولأجل هذا أمر بالجهاد، وضُرب أعناقُ من أباهُ وآثر غيره عليه، وجعـل له في الآخـرة دار الهوان خـالداً مُخلَّداً، وعلى هـذا الأمـر العظيمِ أُسِّست المِلَّةُ ونُصبت الْقِبْلَةُ، وهو قطبُ رحَىَ الخلْقِ والأمـرِ الذي مـدارهما عليـه، ولا سبيـل إلى الدخول إلى ذلك إلاَّ من باب العلم، فإنَّ محبَّةَ الشيءِ فرعٌ عن الشُّعور به، وأعرف الخلق بالله أشدّهم حُبّاً له، فكلُّ من عَرف الله أحبَّه، ومن عرف الدنيا وأهلَها زهد فيهم، فالعلم يفتح هذا البابَ العظيم الذي هو سرُّ الخلقِ والأمرِ»(١).

---

(١) مفتاح دار السعادة. جـ ١ ص ٨٦.

قلتُ: فينبغي لطالِب العلمِ أن يختارِ البدءَ بالَّذِي هو في أمَسِّ الحاجة إليه في عاجل أمره وآجله ـ أعني العلمَ بالله عز وجل؛ بأسمائِهِ وصفـاتِهِ وأفعـالِهِ ـ فـإذا انْضَبَطَ له هذا المقدارُ من علمٍ بالله عزَّ وجلَّ، كـان عليه الأخذُ بعلمي الكتاب والسنَّةِ على نَهْج صَدْرِ الأمَّة الأول رضي الله عنهم، حتى يصـحَّ لــه التلقِّي عن رسول الله ﷺ.

قــال ابن القيِّم رحمـه الله: «ولمَّــا كـان التلقِّي عنه ﷺ على نوعين: نوع بوساطةٍ ونوعٍ بغير وساطةٍ، وكـان التلقِّي بلا وسـاطةٍ حظَّ أصحـابه الـذين حازُوا قَصَبَاتِ السَّباق، واستولوا على الأمد، فلا طمع لأحدٍ من الأمَّةِ بعدهم في اللّحاقِ، ولكن المبَرَّز من اتبـع صــراطهم المستقيم، واقتفى منهـاجهـم القــويـم، والمتخلّف مَنْ عَـدَلَ عن طريقهم ذات اليمين وذات الشمـال، فذلـك المنقطع التَّـائه في بَيـدَاء المهالِـكِ

والضلال، فأيّ خصلة خيرٍ لم يسبقوا إليها؟! وأيَّ خُطَّة رُشْدٍ لم يَستولوا عليها!!

تالله لقد وَرَدوا رأسَ الماء من عين الحياةِ عَـذْباً صافياً زلَالاً، وأيَّدوا قواعدَ الإسلامِ فلم يدعوا لأحدٍ بعدهم مَقَالاً، فتحوا القلوب بعَدلهم بالقرآن والإيمان، والقُرىٰ بالجهادِ بالسَّيفِ والسِّنان، وألْقوا إلى التابعين ما تلقَّوه من مِشكاة النبوَّة خالصاً صافياً، وكان سندُهم فيه عن نبيهم ﷺ عن جبريلَ عَن ربِّ العالمين سَنَداً صحيحاً عالياً، وقالوا هذا عهد نبيِّنا إلينـا وقد عهـدنا إليكم وهذه وصيّةُ ربنا وفرضُه علينا وهي وصيَّتُه وفرضُه عليكم.

فَجَـرَى التـابعـون لهم بـإحسـانٍ على منهـاجهم القويم، واقتفوا على آثارهم صراطَهم المستقيم، ثم سلك تابعو التابعين هذا المَسْلَك الرشيد، وهُدُوا إلى الطيِّب من القول وهُدوا إلى الصراط الحميد، وكانـوا بالنسبة إلى مَن قبلهم كما قال أصدق القائلين: ﴿ثُلَّةٌ

﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾[1].

ثم جاءت الأئمةُ من القرن الرابع المفضَّل في إحدى الروايتين، كما ثبتَ في الصحيح من حديث أبي سعيد وابن مسعود وأبي هريرة وعائشة وعمران بن حصين، فسلكوا على آثارهم اقتصاصاً، واقتبسوا هذا الأمر عن مشكاتهم اقتباساً، وكان دينُ الله سبحانه أجَلَّ في صدورهم، وأعظم في نفوسهم من أن يُقدِّموا عليه رأياً معقولاً أو تقليداً أو قياساً، فطار لهُمُ الثناءُ الحَسَنُ في العالمين، وجعل اللَّهُ سبحانه لهم لسان صدْقٍ في الآخرين، ثمَّ سار على آثارهم الرَّعيلُ الأول من أتباعهم، وَدَرَجَ على منهاجهم الموفقون من أشياعهم، زاهدين في التعصُّبِ للرجال، واقفين مع الحُجَّةِ والاستدلالِ، يسيرون مع الحق أين سارت ركائبُه، ويستقِلُّون مع الصواب حيث استقلّت مضاربه، إذا بدا

(١) سورة الواقعة: الآية ١٣ ـ ١٤.

لهم الدليلُ بِأخْذَتِهِ[1] طاروا إليه زَرَافَاتٍ وَوُحْداناً[2]، وإذا دعاهم الرسولُ إلى أمرٍ انتدبوا إليه ولا يسألونه عمَّا قال برهاناً[3]، ونصوصه أجَلُّ في صدروهم وأعظم في نفوسهم من أن يُقَدِّموا عليها قول أحدٍ من النَّاسِ، أو يعارضوها برأيٍ أو قياس[4].

---

(١) الأخْذَةُ: رقيةٌ كالسِّحْر وهي بضمِّ الهمزة، والمعنى أنَّ الدليل له عندهم فعلٌ، كفعل السحرِ، فلا يؤثرون عليه شيئاً.

(٢) زَرَافَاتٍ: جماعات، وُحْدَاناً: جمع واحد. والمعنى ذهبوا إلى الدليل جميعاً، وهو مأخوذٌ من قول الحماسيِّ:

قَومٌ إذَا الشَّرُّ أَبْدَىٰ نَاجِذَيْهِ لَهُمْ
طَارُوا إِلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوُحْدَانَا

(٣) مأخوذٌ، من قول الحماسيِّ صاحِبِ البَيت المتقدِّم:

لَا يَسْأَلُونَ أخَاهُمْ حِيْنَ يَنْدُبُهُمْ
فِي النَّائِبَاتِ عَلَىٰ مَا قَالَ بُرْهَانَا

انظر شرح المرزوقي على ديوان الحماسة. جـ ١ ص ٢٧.

(٤) أعلام الموقعين. جـ ١ ص ٥.

وعلى الجملة، فينبغي لطالِب العلمِ أن يُصرِّفَ هَمَّه، ويُوَجِّه هِمَّتَه إلى علومِ القرآنِ والسنَّةِ، فالعلم بهما هو العلُم الحقُّ، والجهل بغيرهما جهلٌ لا يضرُّ، وهذه نصيحةُ مشفقٍ رفيق يبعثها إليك في ظلالٍ من الشوقِ، وفي غُلالَةٍ من الوشي، وفي أناقةِ لَفْظٍ، وأُخْذَةِ سِحْرٍ، يقول ابن القيّم رحمه الله ناصحاً:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُرِيدُ نجَاتَهُ
اسْمَعْ مَقَالَةَ نَاصِحٍ مِعْوَانِ
كُنْ في أمُورِك كُلِّهَا مُتَمَسِّكاً
بالْوَحْي لَا بِزَخارِف الْهَذَيَانِ
وانْصُرْ كِتَاب الله وَالسُّنَنَ الَّتِي
جَاءَتْ عَنِ الْمَبْعُوث بالْفُرْقَانِ
وَاضْرِبْ بِسَيْفِ الْوَحْي كُلّ مُعَطِّلٍ
ضَرْبَ الْمُجَاهِدِ فَوْق كُلِّ بنانِ
وَاحْمِلْ بِعَزْمِ الصِّدقِ حَمْلَةَ مُخْـ
ـلِصٍ مُتَجَرِّدٍ لله غَيْرِ جَبانِ

وَاثْبُتْ بِصَبْرِكَ تَحْتَ أَلْوِيةِ الْهُدَى

فَإِذَا أَصِبْتَ فَفِي رِضَا الرَّحْمٰنِ

وَاجْعَلْ كِتَابَ اللَّهِ والسُّنَنَ التي

ثَبَتَتْ سِلَاحَك ثُمَّ صِحْ بِجنَانِ

مَنْ ذَا يُبَارِزُ فَلْيُقَدِّمْ نفْسَهُ

أَوْ مَنْ يُسَابِقُ يَبْدُ في الْمَيْدانِ

وَاصْدعْ بِمَا قَالَ الرَّسُولُ وَلَا تخفْ

مِنْ قِلَّةِ الأَنْصارِ وَالأَعْوانِ

وَتعَرَّ مِنْ ثَوْبَيْنِ مَنْ يَلْبَسْهُمَا

يَلْقَ الرَّدَىٰ بِمَذَمَّةٍ وَهَوَانِ

ثَوْبٍ مِنَ الْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ فَوْقَهُ

ثَوْبُ التَّعَصُّبِ بِئْستِ الثَّوْبَانِ

وَتحَلّ بِالإنْصَافِ أفخر حُلّةٍ

زِيْنَتْ بِهَا الأَعْطَافُ والْكتفَانِ

وَاجْعَلْ شِعَارَك خشْيَةَ الرَّحْمٰنِ مَعْ

نُصْحِ الرَّسُول فَحَبّذا الأَمْرانِ

وَتمسَّكَنَّ بِحَبْلِهِ وَبِوَحْيِهِ
وَتوَكَّلنَّ حَقِيقَةَ التُّكْلاَنِ

ورحم الله الشافعيَّ إذ يقول:
كُلُّ الْعُلُوم سِوى الْقُرْآنِ مَشْغلَةٌ
إلاَّ الْحَدِيثَ وَإلاَّ الْفِقْه فِي الدِّينِ
العِلْمُ مَا كَان فِيهِ قَالَ حَدَّثَنَا
وَمَا سِوىٰ ذَاكَ وَسْوَاسُ الشَّيَاطِينِ

ويقول ابن القيِّم رحمه الله:
الْعِلْمُ قَالَ اللَّهُ قَالَ رَسُولُهُ
قَالَ الصَّحَابَةُ هُمْ أُوُلُو الْعِرفَانِ
مَا الْعِلْمُ نصْبَكَ لِلْخِلاَفِ سَفَاهَةً
بَيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَ رَأيِ فُلاَنِ

فَمَنْ رام العلمَ بعيداً عن الكتابِ والسنَّةِ فقد رام المستحيلَ، ومَنْ أخذ بغيرهما استغناءً عنهما فقد ضلَّ سواء السبيل، فهما الْبُرْءُ من الجهل ودواؤه، وهما

العافيةُ من العِيِّ وشفَاؤه، ورحم اللَّهُ العلاّمة ابن القَيِّم إذ يقول:

وَالْجَهْلُ دَاءٌ قَاتِلٌ وَشِفَاؤُهُ
أمْرَانِ فِي التَّرْكِيبِ مُتَّفِقَانِ
نصٌّ مِنَ الْقُرْآنِ أوْ مِنْ سُنَّةٍ
وَطَبِيبُ ذَاكَ الْعَالِمُ الرَّبَّانِي
والْعِلْمُ أقْسَامٌ ثَلاَثٌ مَالَهَا
مِنْ رَابِعٍ وَالْحَقُّ ذُو تِبْيَانِ
عِلْمٌ بِأوْصَافِ الإلَهِ وَفِعْلِهِ
وَكَذَلِك الأَسْمَاءِ لِلرَّحْمنِ
وَالأمْرُ والنَّهْيُ الَّذِي هُوَ دِيْنُهُ
وَجَزَاؤُهُ يَوْمَ الْمَعَادِ الثَّانِي
وَالْكُلُّ فِي الْقُرْآنِ والسُّنَنِ الّتِي
جَاءَتْ عَنِ الْمَبْعُوثِ بالفُرْقَانِ
وَاللَّهِ مَا قَالَ امْرُؤٌ مُتَحَذلِقٌ
بِسِوَاهُمَا إلاَّ من الْهَذَيَانِ

ولقد أحْسَنَ القائل:

أيُّهَـا الْمُـغْتَـدِي لِيَـطْلُبَ عِلْمـاً
كُـلُّ عِلْمٍ عَبْـدٌ لِعِلْم الـرَّسُـولِ
تَـطْلُبُ الْفَـرْعَ كَيْ تُصَحِّـح أصْـلاً
كَيْفَ أغْفَلْتَ عِلْمَ أصْلِ الأصُولِ؟!

فأصلُ العلمِ ومَعْدِنُهُ كتابُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ وما جاءَ في الوحي الثاني وهي سنَّةُ النبيِّ ﷺ، فَالْبَدَارَ الْبَدَارَ إليهما، وَالْحِرصَ الْحِرصَ عليهما، فهما وَاحَةُ الأمْنِ، ومَلاذُ الرَّاحَةِ، وهُمَا الظِّلُّ الظَّلِيلُ، والفوزُ الجميل.

وعلى طـالب العلم أن يجتهد في اختيـار الشيخ «فينبغي أن يختار الأعلمَ والأوْرَعَ والأسَنَّ كما اختار أبو حنيفة رحمه الله تعالى، حَمَّاد بن سليمان رحمه الله، بعد التَّأمُّلِ والتفكّرِ، وقال: وجدتُه شيخاً وقُوراً حليماً صبُوراً، وقال: «ثَبتُّ عند حماد بن سليمان فَنَبَتُّ»[1].

---

(١) تعليم المتعلم. ص ١٢.

وقد أخرج مسلمٌ رحمه الله في مُقدِّمةِ صحيحه بسنده عن محمد بن سِيرينَ. قال: «إنَّ هَـذَا الْعِلْمَ دِينٌ، فَانْظُروا عَمَّنْ تَأخُذُونَ دِينَكُمْ»[1].

وقال ابن جماعة رحمه الله: «ينبغي للطّالب أن يُقَدِّمَ النَّظَرَ، ويستخيرَ الله فيمنْ يأخذ العلمَ عنه، ويكتسبُ حُسْنَ الأخلاقِ والآدابَ منه، وليكن إن أمكن ممَّن كَمُلَتْ أهليَّتهُ، وتحقَّقَتْ شَفقتُهُ، وظهرت مُروءَتُهُ، وعُرفت عِفّتُهُ، واشتهرت صيانتُهُ، وكان أحسن تعليماً، وأجود تَفهيماً، ولا يرغب الطالبُ في زيادةِ العلم مع نقصٍ في وَرَعٍ أو دين أو عدم خُلُقٍ جميل.

فعن بعض السلفِ: إنَّ هذا العلم دينٌ فانظروا عمَّنْ تأخذون دينكم.

وليحذَرْ من التَّقَيُّدِ بالمشهورين، وتركِ الأخذِ عن الخاملين، فقد عَدَّ الْغَزَّالِيُّ وغيرُهُ ذلك من الكبرِ على

---

(١) شرح النووي على مسلم. جـ ١ ص ٨٤.

العلمِ، وجعله عَيْنَ الحماقَةِ، لأنَ الحكمةَ ضالةَ المؤمنِ يلتقطُهَا حيث وجدها، ويغتنمها حيثُ ظَفرَ بها، ويتقلَّدُ المنَّةَ لمنْ ساقها إليه، فإنَّه يهرب من مخالفةِ الجهلِ كما يهرب من الأسدِ، والهاربُ من الأسد لا يَأنَفُ من دلالةِ من يدلُّه على الخلاص كائناً مَنْ كان.

فإذا كان الخاملُ مِمَّنْ تُرجىٰ بركتُهُ كان النَّفعُ به أعمَّ، والتحصيلُ من جهتِهِ أَتَمَّ، وإذا سَبَرْتَ أحوال السَّلَفِ والْخَلَفِ لم تجد النَّفعَ يحصل غالباً، والفلاحَ يدرك طَالباً إلاَّ إذَا كان للشيخِ من التقوى نصيبٌ وافرٌ، وعلى شفقته، ونُصْحِهِ للطَّلَبةِ دليل ظاهرٌ.

وكذلك إذا اعتبرتَ المُصَنَّفاتِ وجدتَ الانتفاع بتصنيفِ الأتقى الأزهد أوفر، والفَلاَحَ بالاشتغالِ به أكثر.

وليجتهدْ أن يكونَ الشيخُ مِمَّنْ له على العلوم الشرعية تمام الاطِّلاعِ، وله مع من يُوْثَقُ به من مشايخ عصرهِ كَثْرةُ بحثٍ وطولُ اجتماعٍ، لا مِمَّنْ أخذ مِنْ

بطونِ الأوراقِ، ولم يُعرف بصُحبة المشايخ الحُذَاق.

قال الشافعيُّ رضي الله عنه: من تفقَّه من بُطون الكتُب ضيَّعَ الأحكامَ وكان بعضُهم يقول: من أعظم الْبَلِيَّةِ تَشَيُّخُ الصحيفة، أي الذين تعلَّمُوا من الصحف»[١].

وأخرج الخطيبُ رحمه الله بسنده عن مغيرة عن إبراهيم قال: «كانوا إذا أتوا الرَّجُلَ ليأخُذُوا عنه، نظروا إلى سَمْتِهِ[٢]، وإلى صلاته، وإلى حاله، ثمَّ يأخذون عنه».

وعن الثوريِّ قال: «من سَمِعَ من مُبْتَدعٍ لم ينفعه الله بما سمع، ومن صافَحَهُ فقد نَقَضَ الإسلامَ عُرْوَةً عُرْوَةً».

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم. ص ٨٥.

(٢) السَّمْتُ: هيئة أهل الصلاح، وتُطلقُ على الزي الحَسَن، والهيْئةِ المُثْلَى في الملبس وغيره.

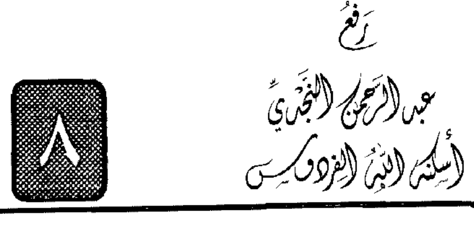
وعن مالك بن أنس قال: لا يَؤخذ العلم من أربعةٍ، ويُؤخذُ مِمَّنْ سوى ذلك. لا تأخذْ من سفيهٍ مُعْلنٍ بالسَّفَهِ وإن كان أروى الناس، ولا تأخذْ من كذَّابٍ يكذبُ في أحاديث الناس، إذا جُرِّب ذلك عليه، وإن كان لا يُتَّهمُ أن يكذب على رسول الله ﷺ، ولا من صاحب هوىً يدعو النَّاس إلى هواه، ولا من شيخٍ له فضل، وعبادةٌ، إذا كان لا يعرفُ ما يُحدِّث»[1].

قلتُ: قد تَبَيَّنَ ممَّا سَلَفَ أنَّ اختيارَ العلمِ، وتقديمَ الأَهَمِّ، ممَّا لا مَدْخَلَ للعلمِ من سواه، فعلى طَالِبه تحرير ذلك، وكذلك اختيار الشيخ، فإنَّما هو قُدْوَةُ السَّالِك، وحادي الطالبِ، ونَجْمُهُ المنيرُ المُتَّبعُ، فليكن من أهلِ الأهواء على حَذَرٍ، والله الهادي لا إله غيره، ولا ربَّ سواه.

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع. جـ ١ ص ١٣٩.





٨

التِزَامُ الأدَبِ التَّامِّ مَعَ شَيْخِهِ وَقُدْوَتِهِ

إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد بيَّن في كتابه ـ وهو ربُّ القلوبِ وعلاَّمُ الغيوب ـ أنَّ الذكرىٰ لا تُجدي عند كلِّ أحدٍ، وليست بنافعةٍ كُلَّ مَنْ سمعها، بل لا بُدَّ من شروطٍ وقيودٍ، فقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

قال ابن القيِّم رحمه الله: «إذا أردتَ الانتفاع بالقرآن، فاجمع قَلْبَكَ عند تلاوتِهِ، وألْقِ سمعَك، واحضر حضورَ مَنْ يخاطبه به مَنْ تكلَّم به سبحانه، منه إليه، فإنَّه خطابٌ منه لك على لسانِ رسولِهِ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾.

وذلك أن تمام التأثير لمَّا كان موقوفاً على: مُؤَثِّرٍ مُقْتَضٍ، ومحلٍّ قابلٍ، وشرطٍ لحصول الأثَرِ، وانتفاءِ المانِعِ الذي يمنع منه، تَضمَّنت الآيةُ بيانَ ذلك كلِّه بأوْجَز لفْظٍ وأبْيَنِهِ وأدَلِّه على المرادِ، فقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾. إشارةٌ لما تقدَّم من أوَّلِ السورة إلى هاهنا، وهذا هو المُؤَثِّرُ.

وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ فهذا هو المحلُّ القابِلُ، والمراد: القلبُ الحيُّ الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾[يس: ٦٩-٧٠]، أي حَيَّ القلب.

وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي وَجَّه سَمْعَهُ، وأصغى حاسة سمعِهِ إلى ما يقال له: وهذا هو شرط التأثر بالكلام.

وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي شاهدُ القلب حاضرٌ غيرُ غائبٍ، قال ابن قُتَيْبَة: استمع لكتاب الله وهو شاهدُ

القلبِ والفهمِ، ليس بغافل ولا ساهٍ، وهو إشارةٌ إلى المانِع من حصول التَّأثُّرِ، وهو سهوُ القلبِ وغَيْبَتُهُ عن تَعَقُّلِ ما يُقَالُ له، والنَّظَرِ فيه وتأمُّلِهِ.

فإذا حصل المُؤَثِّرُ، وهو القُرآنُ، والمحلُّ القابلُ، وهو القلبُ الحيُّ، وَوُجِدَ الشرطُ، وهو الإصغاءُ، وانتفى المانِعُ، وهو اشتغالُ القلب وذهولُهُ عن معنى الخطابِ وانصرافُهُ عَنهُ إلى شيءٍ آخر: حصل الأثرُ وهو الانتفاع بالقرآنِ والتَّذكُّر»[1].

فلا يُنالُ العلم إلاَّ بإلقاءِ السَّمع مع التَّواضُعِ، فعن الشَّعْبيِّ رحمه الله قال: صلَّى زيدُ بن ثابتٍ على جنازة ثمَّ قُرِّبَتْ لهُ بَغْلَةٌ ليركَبها، فجاء ابن عَبَّاس فأخذ بركابِهِ، فقال له زيدٌ: خَلِّ عنهُ يا ابنَ عمِّ رسول الله ﷺ، فقال ابن عباس: هكذا يُفعلُ بالعلماء»[2].

---

(١) الفوائد. ص ٥.

(٢) أخرجه الطبراني والبيهقي في «المدخل» والحاكم وقال: - =

وقد كان السَّلَف ـ رضي الله عنهم ـ يُعظِّمون مَنْ يتعلّمون منهم تعظيماً شديداً، وآثارُهُم في ذلك شاهدةٌ على آدابهم في مجالس التعليم، وعلى توقيرهم لمعلِّميهم، وقد أخرج الخطيبُ رحمه الله كثيراً من تلك الآثار فَسَاق بِسَنَدِهِ: «عن مغيرة، قال: كُنَّا نَهَابُ إبْرَاهيمَ النَّخعيَّ كما يُهَابُ الأميرُ.

وعن أيوب قال: كان الرَّجُلُ يَجْلِسُ إلى الْحَسَنِ ثَلَاثَ سِنينَ، فلا يَسْأَلُهُ عَنْ شَيءٍ هِيْبَةً لَهُ.

وعن إسحاق الشهيدي قال: كنْتُ أرى يحيى القطَّان يصلي العصَر، ثمَّ يستند إلى أصلِ مَنَارَةِ المسجد، فيقفُ بينَ يديه: عليُّ بنُ الْمَديني، والشَّاذَكُوني، وعَمرو بنُ عليٍّ، وأحمدُ بنُ حَنْبَل، ويحيى بنُ مَعِين، وغيرُهُم، يسألونه عن الحديث ـ

= صحيح الإسناد على شرط مسلم، كذا قال العراقيُّ في تخريج أحاديث الأحياء. جـ ١ ص ٥٠.

وهم قيامٌ على أرْجُلِهِمْ - إلى أن تَحينَ صلاةُ المغرِب. لا يقولُ لواحدٍ منهم: اجلسْ، ولا يجلسون هَيْبَةً له وإعْظاماً.

وعن الغلابي قال: قال ابن الخياط يمدح مالك بن أنس:

يَدَعُ الْجَوَابَ فَلَا يُرَاجَعُ هَيْبَةً
وَالسَّائِلُونَ نَوَاكِسُ الأَذْقَانِ
نُورُ الْوَقَارِ وَعِزُّ سُلْطَانِ التُّقَىٰ
فَهُوَ الْمَهِيبُ وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ

وعن عبدالرحمٰن بن حَرْمَلَةَ الأسْلميِّ قالَ: ما كان إنسانٌ يجترىءُ عَلَىٰ سعيد بنِ المُسَيِّب يسأله عن شيء حتى يستأذِنَهُ كما يُسْتأذَنُ الأميرُ»[1].

«ويُقالُ إنَّ الشافعي رضي الله عنه عُوتبَ على تواضعه للعلماء فقال:

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع. جـ ١ ص ١٨٤.

أَهِينُ لَهُمْ نَفْسِي فَهُمْ يُكْـرِمُونَهَـا
وَلَنْ تُكْـرَمَ النَّفْسُ الَّتِي لا تُهِينُهَـا

وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه لخلف الأحمر رحمه الله: «لَا أقْعُد إلَّا بيْن يَدَيْكَ، أُمِرْنَا أنَ نَتَواضَعَ لمنْ نَتَعَلَّمُ مِنْهُ»(١).

«فعلى طالب العلم أن ينقاد لشيخه في أموره، ولا يخرجَ عن رأيه وتدبيره، بل يكون معه كالمريض مع الطبيب الماهر فيشاوره فيما يقصده، ويتحرًّى رضاه فيما يتعمَّده، ويبالغ في حُرْمَته، ويتقَرَّب إلى الله تعالى بخدمتِهِ، ويعلم أنَّ ذلَّهُ لشَيْخِهِ عِزٌّ، وخضوعَه له فَخرٌ، وتواضعَه له رفعةٌ.

وعلى طالب العلم أن يَنْظُرَ شَيخَه بَعينِ الإجلالِ، فإنَّ ذلك أقرب إلى نفعه به، وكان بعضُ السَّلِف إذا

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم. ص ٨٧.

ذهب إلى شيخِهِ تَصدَّقَ بشيءٍ وقال: اللهمَّ اسْتُرْ عَيْبَ شيخي عنِّي، ولا تُذهِبْ بركةَ عِلْمِهِ منِّي»[1].

«وقال الشافعيُّ رحمه الله: كُنْتُ أصفَحُ الورقَةَ بين يَدَي مالكٍ رحمه الله صفْحاً رقيقاً هيبةً له لِئَلا يسمع وقْعَهَا.

وقال حمدان الأصفهاني: كنتُ عند شريك رحمه الله، فأتاه بعضُ أولاد الخليفة المهْديِّ، فاستند إلى الحائطِ، وسأله عن حديثٍ فلم يلتفت إليه، وأقبل علينا، ثمَّ عادَ فعادَ لمثل ذلك، فقال: أتَسْتَخِفُّ بأولادِ الخلفاءِ؟

فقال شريكٌ: لا، ولكنَّ العلمَ أجلُّ عندالله تعالىٰ مِنْ أنْ أضَعَهُ، فَجَثَا على رُكبتيه، فقالَ شريكٌ: هكذا يُطلَبُ العِلْمُ»[2].

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم. ص ٨٨.
(٢) المجموع. جـ ١ ص ٣٦.

«وينبغي ألَّا يُخَاطِبَ شيخه بتاءِ الخطابِ وكافِهِ، ولا يناديه من بُعْدٍ.

وقال الخطيبُ: يقولُ: أيُّهَا العَالِمُ، أيُّهَا الحافِظُ، ونحو ذلك ما تقولون في كذا؟ وما رأيُكُمْ في كذا؟ وشبه ذلك، ولا يُسَمِّيه في غَيْبَتِهِ أيضاً باسمه، إلَّا مقروناً بما يُشْعِرُ بتعظيمه؛ كقوله: قال الشيخُ، أو الأستاذُ، أو قال شيخُنَا كذا.

وعليه أن يعرفَ للشيخِ حَقَّهُ، ولا ينسىٰ فَضْلَهُ، وأنْ يُعظِّم حُرْمَتَهُ، ويردَّ غِيبَتَهُ، ويغضبَ لها، فإن عجزَ عن ذلك قامَ وفارق ذلك المجلسَ، وينبغي أن يدعُوَ للشيخِ مُدَّة حياتِهِ، ويَرْعَىٰ ذُرِّيَّتَهُ وأقاربَهُ وأوُدَّاءَه بعد وفاتِهِ، ويتعمَّدَ زيارةَ قبرِهِ والاستغفارَ له، والصَّدَقَةَ عنه، ويسْلُكَ في السَّمْتِ والهَدْيِ مَسْلَكَهُ، ويراعي في العلم والدينِ عادتَهُ، ويقتدي بحركاته وسَكَناتِهِ في عاداتِهِ وعباداتِهِ، ويتأدَّب بآدابه، ولا يَدَعَ الاقتداءَ به»[1].

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم. ص ٨٩.

وعلى طالب العلمِ أن يصبر على جفاءِ شيخِهِ وأن يترفَّقَ به، وقد أخرج الخطيب رحمه الله بسنده عن الشافعي رحمه الله تعالى قال: «كان يختلفُ إلى الأعمش رجلان، أحدهما كان الحديثُ من شَأنِهِ، والآخرُ لم يكن الحديثُ من شأنِهِ. فغضب الأعمشُ يوماً على الذي من شأنه الحديث، فقال الآخر: لو غضب عليَّ كما غضب عليك لم أعُدْ إليه، فقال الأعمش: إذن، هو أحمقُ مثلك، يتركُ ما ينفعه لسوءِ خُلُقِي»[1].

وحكى الشافعي رحمه اللّهُ مثل ذلك عن سفيانَ بن عُيَيْنَةَ رحمه الله، فقد قيل لسفيانَ: إنَّ قَوماً يَأتُونَك من أقْطَارِ الأرضِ تغضبُ عليهم، يُوشِكُ أن يذهبوا ويتركوك، فقال للقائل: هم حمقَى - إذن - مثلك إن تركوا ما ينفعهم لسوء خُلُقي»[2].

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع. جـ ١ ص ٢٢٢.

(٢) تذكرة السامع والمتكلم. ص ٩٠، الجامع. ص ٢٢٣.

قال ابن جماعة رحمه الله: «على طالب العلمِ أن يصْبر على جَفْوَةٍ تصدرُ من شيخِهِ أو سُوءِ خُلُقٍ، ولا يصدُّه ذلك عن ملازمته، ويتأوَّل أفعالَهُ التي يظهر أنَّ الصَّواب خلافها على أحسنِ تأويل، ويبدأ هو عند جَفْوةِ شيخه بالاعتذارِ، والتوبة ممَّا وقع والاستغفار، وينسبُ المُوجب إليه، ويجعل العُتْبَ عليه، فإنَّ ذلك أبقىٰ لمودة شَيخِهِ وأحفظُ لقلبه، وأنفع للطالبِ في دنياه وآخرته.

وعن بعض السلف، مَنْ لم يصبر على ذُلِّ التعليم بقي عمره في عَمَايَة الجهالة، ومَنْ صبر عليه آل أمره إلى عزِّ الدنيا والآخرة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ذللتُ طالباً فعززتُ مطلوباً.

وقال معافى بن عمران: مثلُ الذي يغضبُ على العالِم مثل الذي يغضب على أساطينِ الجامعِ»[1].

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم. ص ٩١.

وقال الشافعيُّ رحمه الله:

اصْبِـرْ عَلى مُـرِّ الْجَفَـا مِنْ مُعَلِّمٍ
فَـإنَ رُسُـوبَ الَعِلْم في نفَـرَاتِـهِ
وِمَنْ لَمْ يَـذُقْ مُـرَّ التَّعَلُّمِ سَـاعَةً
تجَـرَّع ذُلَّ الْجَهْـل طُـولَ حَيَاتِـهِ
وَمَنْ فَـاتـهُ التَّعْلِيمُ وَقْتَ شَبَـابِـهِ
فَـكَبِّـرْ عَـلَيْـهِ أرْبَعـاً لِـوَفَـاتِـهِ

وأخرج ابن عبد البَرِّ ـ رحمه الله ـ بسنده عن ابن جريج قال: لم استخرج الذي استخرجتُ من عطاء إلاَّ برفقي به»[1].

عن ابن طاووس عن أبيه قال: من السُّنَّةِ أن يُوَقَّرَ العالِمُ[1].

وَلْيَحْـذَرْ طـالبُ العلمِ أشـدَّ الْحَـذَر أن يُمَـاري أستاذَهُ، فإنَّ الْمِرَاءَ شَرٌ كلُّه، وهو مع شيخـه وقدوتـه

---

(١) جامع بيان العلم وفضله. ص ١٧١.

أقبحُ، وأبعدُ من الخيرِ، وأوْغَلُ في الشَّرِّ، وهو سببٌ للحرمانِ من كثيرٍ من الخير.

«فعن ميمون بن مهران رحمه الله قال: لا تُمَارِ مَنْ هو أعَلَمُ مِنْك، فإذا فعلتَ خزنَ عنك عِلْمَهُ، ولم تضُرَّهُ شيئاً.

وعنه قال: لا تُمَارِ من هو أعلمُ منك، فإنَّك إن ماريتهُ خَزَنَ عنك عِلْمَهُ، ولا يبالي ما صنعتَ.

وعن الزهري رحمه الله قال: «كان سلمةُ يماري ابن عباسٍ، فحُرِمَ بذلك علماً كثيراً»[1].

«وعليه أن يشكر الشيخ على توقيفِهِ على ما فيه فضيلة، وعلى توبيخِهِ على ما فيه نقيصةٌ، أو كسل يعتريه أو قصور يعانيه، أو غير ذلك ممَّا في إيقافِه عليه وتوبيخه إرشادُهُ وصلاحهُ، ويَعُدُّ ذلك من نِعم اللَّهِ

---

(١) جامع بيان العلم وفضله. ص ١٢١.

عليه، باعتناء الشيخ به ونظرِهِ إليه، فإنَّ ذلك أمْثل إلى قلب الشيخ وأبعثُ على الاعتناء بمصالحِهِ.

وإذا وَقَفَهُ الشيخ على دقيقة من أدبٍ أو نقيصةٍ صدرت منه، وكان يعرفها من قبل، فلا يُظهرُ أنه كان عارِفاً بها وغَفَلَ عنها، بل يشكر الشيخ على إفادَتهِ ذلك واعتنائِهِ بأمره، فإن كان له في ذلك عُذْرٌ وكان إعلامُ الشيخ به أَصْلَحَ فلا بأسَ به، وإلاَّ تركه إلاّ أن يترتَّب على ترك بيان العذرِ مفسدةٌ فيتعين إعلامه به.

آدابُ الاسْتِئْذَانِ عَلَىٰ الشَّيخ

إذَا ألفىٰ الطَّالبُ الشيخَ نائماً فلا ينبغي له أن يستأذن عليه، بل يجلس وينتظر استيقاظه، أو ينصرف إن شاء.

«أخرج الخطيب رحمه الله بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لمَّا قُبضَ رسولُ الله ﷺ قلتُ لرجل من الأنصار: هَلُمَّ، فلنسأل أصحابَ رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير، قال: واعجباً لك يا ابن عباس، أترى الناس يفتقرون إليك وفي الناس من أصحاب رسول الله ﷺ مَنْ فيهم؟!

قال: فترك ذلك، وأقبلتُ أنا أسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن الحديث فإن كان ليبلغني الحديث

عن الرجل، فآتي بابه، وهو قَائِلٌ[1]، فأَتَوَسَّدُ ردائي على بـابه، تُسفي الـريحُ عليَّ من التـراب، فيخـرج فيقول: يا ابن عمِّ رسول الله ما جاء بك؟ ألا أرسلتَ إليَّ فآتيك؟ فأقول: أنـا أحقُّ أن آتيك، فـأسألـه عن الحديث. قال: فعاش ذلـك الرجـلُ الأنصاري حتى رآني وقد اجتمع النَّاسُ حولي يسألوني فيقـول: هذا الفتى كان أعقلَ مني.

وعن ابن عبـاس رضي الله عنهما قـال: وجدتُ عامَّة علم رسول الله ﷺ عند هذا الحيّ من الأنصار إنْ كنتُ لأقيل بباب أحدهم، ولو شئتُ أن يؤْذَنَ لي عليه لأُذِنَ لي عليه، ولكن أبتغي بذلك طيبَ نفسه.

وعن سفيان بن عُيينة عن أبي الحسين قال: كان ابن عباس يأتي الرجل من أصحاب النبيِّ ﷺ يريد أن يسأله عن الحديث. فيقالُ له: هو نـائم، فيضطجـع

---

(١) قَالَ يَقيلُ: نَامَ نَوْمَةَ نِصْفِ النَّهَارِ، وَهِيَ الْقَائِلَةُ وَالْقَيْلُولَةُ.

على الباب فيقال لـه: ألا نوقـظه؟ فيقول: لا. وعن مَعْمرٍ قال: سمعتُ الزهريَّ يقول: إن كُنت لآتي بابَ عروة، فأجلس، ثم أنصرف فلا أدخل ـ ولو شئتُ أن أدخلَ لدخلتُ إعظاماً له»[1].

قال ابن جماعة رحمه الله: «على طالبِ العلمِ أن لا يـدخـل على الشيـخ في غيـر المجلس العـامِّ إلَّا باستئذان، سواء كان الشيخ وحده أو كان معه غيره، فإن استأذن بحيثُ يعلمُ الشيخُ ولم يأذن له انصرف، ولا يكرِّرُ الاستئذان، وإن شكَّ في علمِ الشيخ به فلا يـزيد في الاستئـذانِ فـوق ثـلاث مـرات، أو ثـلاث طرقات؛ بالباب أو الحلقة[2] وليكن طَرْقُ البابِ خفيًّا بأدب، بأظفارِ الأصابع ثم بالأصابعِ ثم بالحَلْقَةِ قليلاً قليلاً، فإن كان الموضع بعيداً عن البابِ، والحَلْقَةِ فلا

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع. جـ ١ ص ١٥٨.
(٢) قلت: وفي معنى الحلقة اليوم ما استحدثَ النـاس من أجراسٍ كهربائية ونحوها.

بأس برفع ذلك بقدر ما يَسْمعَ لا غير، وإذا أذِن وكانوا جماعةً، يقدّم أفضلهم وأسنّهم بالدخول والسلام عليه، ثم يُسلِّمُ عليه الأفضل فالأفضل»[1].

وقد أخرج الخطيبُ رحمه الله بسنَدِهِ عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: «**كانت أبوابُ النبي ﷺ تُقْرَعُ بالأظافيرِ**» أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» من رواية أنس رضي الله عنه. ويُكره للطالبِ إذا استأذن فقيل: مَنْ ذا؟ أن يقول: أنا، من غير أن يُسمِّي نفسَه. وإذا كان البابُ مفتوحاً فلا يستقبل البابَ من تلقاءِ وجهه. ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ثمَّ يسلِّم.

أخرج البخاري رحمه الله في كتاب الاستئذان من «صحيحه»، «باب، إذا قال: مَنْ ذا؟ فقال: أنا».

عن جابر رضي الله عنه قال: «**أتيْتُ النَّبيَّ ﷺ في دَيْنٍ كَانَ علَى أبي، فَدَقَقْتُ الْبَابَ، فقَالَ: مَنْ ذَا؟ فَقُلْتُ: أنا، فقَالَ: أنا أنا. كَأنَّهُ كرِهَهَا**».

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم. ص ٩٣.

وأخرج أيضاً في باب «الاستئذان من أجل البصر» عن سَهْلِ بن سَعْدٍ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «**اطَّلَعَ رَجُلٌ مِنْ جُحْرٍ فِي حُجَرِ النَّبيِّ ﷺ، ومَعَ النَّبِيِّ ﷺ مِدْرَى يَحُكُّ بِهِ رَأْسَهُ، فَقَالَ: لَوْ أعْلَمُ أنَّك تنْظُر لَطَعَنْتُ بِهِ فِي عَيْنِكِ، إنَّمَا جُعِلَ الاسْتِئْذَانُ مِنْ أجْلِ الْبَصَر**».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «**أنَّ رَجُلاً اطَّلعَ فِي بَعْضِ حُجَرِ النَّبيِّ ﷺ، فَقَامَ إلَيْـهِ النَّبيُّ ﷺ بِمِشْقَص - أو بِمَشَاقِص - فكأنّي أنْظرُ إلَيْهِ يَخْتِلُ الرَّجُلَ لِيَطْعَنَهُ**.

قال ابن حجر رحمه الله: قوله: «من جُحْرٍ فِي حُجَرٍ»، الأول: بضمِّ الجيم وسكون المهملة؛ وهو كلُّ ثُقْبٍ مستديرٍ في أرض أو حائطٍ، وأصلها مكامنُ الوحوش، والثاني بِضَمِّ المُهْمَلَةِ وفتح الجيم جمع حجرة وهي ناحيةُ البيت. وقوله: «مِدْرَى يَحُكُّ بِهِ» وفي رواية «بها» والْمِدْرَىٰ تُذَكَّرُ وتُؤَنَّثْ. قلتُ: والمِدْرَىٰ هو المُشْطُ.

وقوله في حديث أنس: «بمشقص أو بمشاقص»، المِشْقَصُ بكسرِ أوَّله وسكون ثانيه وفتح ثالثه: نَصلُ السهم إذا كان طويلاً غير عريض. وقوله «يَخْتِلُ» بفتح أوَّله وسكون المعجمة وكسر المثنَّاةِ أي يطعنه وهو غافل.

قال ابن جماعة رحمه الله تعالى: «ينبغي أن يدخل على الشيخ كاملَ الهيئةِ مُتَطَهِّرَ البدن والثيابِ نظيفهما، بعدما يحتاج إليه من أخْذِ ظُفْرٍ وشَعْرٍ، وقَطْعِ رائحةٍ كريهةٍ لا سيِّما إن كان يقصد مجلسَ العلمِ، فإنَّه مجلسُ ذكرٍ واجتماعٍ في عبادة.

ومتى دخل على الشيخ في غير المجلسِ العامِّ وعنده مَنْ يَتَحدَّث معه فسكتوا عن الحديث، أو دخلَ والشيخُ وحده يُصَلِّي أو يذْكُرُ أو يكتبُ أو يُطالعُ فترك ذلك، أو سكتَ، أو لم يبدأه بالكلامِ أو بَسْطِ الحديث فلْيُسلِّم ويخرج مُسْرِعاً إلَّا أن يَحُثَّه الشيخُ على المُكْثِ، وإذا مَكَثَ فَلَا يُطِلْ إلَّا أن يأمره بذلك.

وينبغي أن يدخل على الشيخ أو يجلس عنده، وقلبُه فارغٌ من الشواغِل له، وذهنُه صافٍ، لا في حال نعاس أو غضبٍ أو جوعٍ شديدٍ أو عطش أو نحو ذلك، لينشرحَ صدرُه لما يُقال، ويعي ما يسمعه.

وإذا حَضَرَ مكانَ الشيخِ فلم يجده جالساً انتظره كيلا يُفَوِّتَ على نفسه دَرْسَهُ، فإنَّ كلَّ درسٍ يفوتُ لا عِوَضَ له، ولا يطرق عليه ليخرجَ إليه، وإن كان نائماً صبر حتى يستقيظ، أو ينصرف ثمَّ يعود، والصبرُ خيرٌ له.

وقد روى أنَّ ابن عباس كان يجلس على باب زيد بن ثابت في طلب العلم حتى يستيقظ، فيقال له: ألَّا نوقظه لك؟ فيقول: لا، وربَّما طال مقامُهُ وَقَرَعَتْهُ الشمسُ، وكذلك كان السَّلَفُ يفعلون.

ولا يطلب من الشيخ إقراءَهُ في وقتٍ يَشُقُّ عليه فيه، أو لم تَجْرِ عادتُه بالإقراء فيه، ولا يخترع عليه وقتاً خاصاً به دون غيره وإن كان رئيساً كبيراً، لما فيه من

التَّرَفُّعِ والحمقِ على الشيخ والطلبـةِ والعلمِ ، وربَّما استحيا الشيخُ منه فترك لأجله ما هو أهمُّ عنده في ذلك الوقت فلا يفلح الطالبُ، فإن بدأهُ الشيخُ بوقتٍ معيَّنٍ أو خاصٍّ بعذرٍ عائقٍ له عن الحضور مع الجماعة أو لمصلحةٍ رآها الشيخُ فلا بأس بذلك»[١].

وإذا انتهىٰ الطالبُ إلى حلقةِ الشيخ جلس حيث انتهىٰ بـه المجلس، وقد أخـرج الخطيبُ رحمـه الله بسنده عن سفيان بن عيينة عمَّن أخبره قال: «كان كعبُ عند عمر بن الخطاب، فتباعد في مجلسه. فأنكر عمرُ ذلـك عليه، فقـال كعب: يـا أميـر المؤمنين، إنَّ في حكمة لقمان ووصيته لابنه: يا بُنَيَّ إذا جلستَ إلى ذي سلطان، فليكن بينك وبينه مقعد رجل، فلعلَّه يأتيه مَنْ هو آثر عنـده منك، فَتُنَحَّى عنـه، فيكون ذلـك نقصاً عليك»[٢].

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم. ص ٩٥.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع. جـ ١ ص ١٧٧.

«وينبغي على طالب العلم أن يجلس بين يَديْ شيخهِ بتواضعٍ وخشوعٍ وسكونٍ، ويُصغي إلى الشيخ ناظراً إليه، ويُقبلُ بكُلِّيته عليه، متعقِّلاً لقوله، ولا يلتفت من غير ضرورةٍ، ولا ينظر إلى يمينه أو شماله أو فوقه أو قدّامه بغير حاجةٍ، ولا سيِّما عند بحثه أو عند كلامه معه.

وينبغي أن لا ينظُرَ إلَّا إليه، ولا يضطرب لضجَّةٍ يسمعها أو يلتفت إليها، ولا سيِّما عند بحثٍ له، ولا ينفض كُمَّيْه، ولا يحسر عن ذراعيه، ولا يَعْبث بيديه أو رجليه أو غيرهما من أعضائه، ولا يضع يده على لحيته أو فمه أو يعبث بها في أنفه أو يستخرج منها شيئاً، ولا يفتح فاه ولا يقرعُ سِنَّهُ، ولا يضرب الأرض براحته أو يَخُطَّ عليها بأصابعه، ولا يشبِّك بيديه أو يَعْبَث بأزراره.

ولا يسندُ بِحَضْرةِ الشيخ إلى حائطٍ أو مخدَّةٍ، أو يجعل يده عليها، ولا يعطي الشيخ جَنْبَهُ أو ظَهْرَهُ، ولا يعتمد على يده إلى ورائه أو جنبه ولا يُكثِر كلاَمَهُ من

غير حاجةٍ، ولا يحكي ما يُضحك منه أو ما فيه بَذاءَةٌ أو يتضمَّنُ سُوْءَ مخاطبةٍ أو سُوْءَ أدب، ولا يضحك لغير عجبٍ، ولا يعجبُ دون الشيخ، فإن غلبه تَبَسَّمَ تَبَسُّماً بغير صوتٍ ألْبَتَّةَ.

ولا يُكْثر التَّنَحْنُحَ من غير حاجةٍ ولا يَبْصُقُ ولا يَتَنَخَّعُ ما أمكنه، ولا يَلفِظُ النخامة من فيه، بل يأخذها من فيه بمنديلٍ أو خِرْقَةٍ أو طَرْفِ ثوبٍ، ويتعاهد تغطية أقدامِهِ وإرخاءَ ثيابه وسكونَ يديْه عند بحثه أو مذاكرته، وإذا عطس خفض صوتَه جهدَه وستر وجهه بمنديل أو نحوه، وإذا تثاءبَ سَتَرَ فَاهُ بعد رَدِّهِ بجهده.

وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: من حقِّ العالمِ عليكَ أن تسلِّمَ على القومِ عامَّةً وتَخصَّه بالتحيةِ، وأن تجلس أمامه، ولا تشيرنَّ عنده بيديك ولا تغمز بعينيك غيره، ولا تقولنَّ قال فلانٌ خلاف قوله، ولَا تَغتابنَّ عندهُ أحداً، ولا تطلبنَّ عثرتَه، وإن زلَّ قَبلتَ معذرتَهُ، وعليك أن توقِّره لله تعالىٰ، وإن كانت له حاجة سبقتَ

القومَ إلى خدمته، ولا تسارّ في مجلسه، ولا تأخذ بثوبه، ولا تلحّ عليه إذا كسل، ولا تشبع من طول صحبته، فإنّما هو كالنّخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيء. ولقد جمع رضي الله عنه في هذه الوصيَّة ما فيه كفاية»[1].

قلتُ: فالسكونُ والوقارُ ممَّا يلزم الطالبَ في مجلس العلمِ، واستعمالُ الأدب حتمٌ لازمٌ لكلِّ طالبِ علمٍ، وقد كان السلف رحمهم الله يوقِّرون مجالسَ العلمِ توقيراً شديداً، وكانوا يجلسون فيها، وكأنَّ على رؤوسهم الطير.

«قال أبو بكر بن الأنباري: قولهم جُلَسَاءُ فلانٍ كأنَّما على رؤوسهم الطير، في هذا قولان:

أحدهما: أن يكون المعنى أنَّهم يسكنون فلا يتحركون، ويَغُضُّونَ أبصارهم. والطير لا يقع إلاَّ على

(١) تذكرة السامع والمتكلم. ص ٩٧.

ساكن. يُقَالُ للرَّجُل إذا كان حَليماً وقُوراً: إنَّه لَسَاكنُ الطير الطائر، أي كأنَّ على رأسه طَيْراً، لسكونه.

والقول الثاني: أنَّ الأصلَ في قولهم، كأنَّما على رؤوسهم الطيرُ، أنَّ سليمان بن داود كان يقول للريح: أقلِّينا، وللطير: أظِلِّينَا، فتُقِلَّهُ وأصحابَهُ الريحُ، وتُظِلُّهُمُ الطيرُ. وكان أصحابُهُ يَغُضُّون أبصارَهم هَيْبَةً له وإعظاماً ويسكنون فلا يَتَحَرَّكُونَ، ولا يتكلَّمُون بشيءٍ إلَّا أن يسألَهُمْ عنه فيجيبوا، فقيل للقوم إذا سكنوا: هُم عُلَماءُ وقرَّاءُ كأنَّما على رؤوسهم الطير، تشبيهاً بأصحاب سليمان عليه السلام»[1].

وأخرج الخطيبُ رحمه الله بسنده عن أحمد بن سنان القطَّان قال: «كَانَ عبد الرحمٰن بن مهدي لا يُتَحدَّثُ في مجلسه، ولا يُبْرىٰ فيه قَلَمٌ، ولا يَبْتسمُ فيه أحدٌ، فإن تُحدِّثَ أو بُرِيَ قلمٌ، صاح، وَلَبسَ نَعْلَيه،

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع. جـ ١ ص ١٩٢.

ودخل. وكان وكيعٌ أيضاً في مجلسه كأنهم في صلاةٍ، فإنْ أنكرَ من أمرهم شيئاً انتعل ودخل.

وكان ابنُ نُمَيْرٍ يغضب ويصيح. وكان إذا رأى مَنْ يَبْري قلماً تغَيَّر وجهُهُ.

وعن عبد الرحمٰن بن عمر قال: ضَحك رجلٌ في مجلس عبدالرحمٰن بن مَهْدي فقال: مَنْ ضَحِك؟ فأشاروا إلى رجل، فقال تطلبُ العلمَ وأنت تضحكُ؟! لا حَدَّثتكُم شَهْراً».

«وعلى طالبِ العلمِ أن يُحْسن خطابهُ مع الشيخ بِقَدْر الإمكان، ولا يقول له: لم؟ ولا: مَنْ نَقَلَ هذا؟ ولا: أين موضعه؟ وشبه ذلك.

وإذا ذكر الشيخُ شيئاً فلا يقل: هكذا قلتُ. أو خَطَر لي، أو سمعتُ، أو هكذا قال فلان، إلَّا أن يعلم إيثارَ الشيخ ذلك وليتَحَفَّظ من مخاطبة الشيخ بما يعتاده بعضُ النَّاس في كلامه، ولا يليق خطابهُ بِهِ مثل: إيش

بك، وفهمتَ؟ وسمعتَ؟ وتدري؟ ونحو ذلك، وكذلك لا يحكي له ما خُوطِب به غيره ممَّا لا يليقُ خطابُ الشيخ به وإن كان حاكياً، مثل قال فلانٌ لفلان: أنت قليلُ البِرِّ، وما عندك خيرٌ وشبه ذلك، بل يقول إذا أراد الحكايةَ ما جرت العادةُ بالكناية بِهِ مثل: قال فلانٌ لفلان: الأبْعدُ قليلُ البِرِّ، وما عند البعيد خير. وإذا سمع الشيخ يذكر حكماً في مسألة أو فائدةً مستغربةً أو يحكي حكايةً أو ينشد شعراً وهو يحفظ ذلك أصغى إليه إصغاءَ مستفيد له في الحال، متعطِّش إليه، فَرِحٍ به كأنَّه لم يسمعه قط.

وعليه ألَّا يسبق الشيخَ إلى شرح مسألةٍ أو جواب سؤال منه أو من غيره، ولا يساوقه، ولا يُظهر معرفته به، أو إدراكه له قبل الشيخ، وينبغي ألا يقطع على الشيخ كلامه ثم يتكلم، ولا يتحدَّث مع غيره، والشيخ يتحدث معه أو مع جماعةِ المجلس.

وإذا ناول الشيخ كتاباً ناوله إياه مهيَّئاً لفتحه

والقراءة فيه، من غير احتياج إلى إدارته، فإن كان النظر في موضع معيَّن فليكن مفتوحاً كذلك، ويعيِّن له المكان، ولا يَحْذفُ إليه الشيء حذفاً[1] من كتابٍ أو ورقةٍ أو غير ذلك.

وإذا مشى مع الشيخ فليكن أمامه بالليل، وخلفه بالنهار، إلَّا أن يقتضي الحالُ خلافَ ذلك لزحمةٍ أو غيرها، ويتقدم عليه في المواطن المجهولة الحال أو الخطرةِ، ويحترز من ترشيش ثياب الشيخ، وإذا كان في زحمةٍ صانه عنها بيديه، إمَّا من قُدَّامه أو من ورائه.

وإذا مشى أمامه التفت إليه بعد كلِّ قليل، فإن كان وحده والشيخ يكلِّمه حالة المشي، وهما في الظلِّ فليكن في يمينه، وقيل عن يساره متقدِّماً عليه قليلاً ملتفتاً إليه، ويعرِّف الشيخ بِمنْ قَرُبَ منه أو قصده من الأعيان إن لم يعلم الشيخُ به.

(١) أي لا يلقي إليه الشيءَ إلقاءً.

ولا يمشي لجانب الشيخ إلاَّ لحاجةٍ أو إشارة منه، ويحترز من مزاحمتِه بكتفه أو بركابه إن كانا راكبين، وملاصقة ثيابه، ويؤثره بجهة الظلِّ في الصيف وبجهة الشمس في الشتاء، وبالجهة التي لا تقرع الشمس فيها وجهه إذا التفت إليه.

ولا يمشي بين الشيخ وبين مَنْ يحدِّثه، ويتأخَّر عنهما إذا تحدَّثا أو يتقدم ولا يقرب منهما ولا يستمع ولا يلتفت، فإن أدخله في الحديث فليأتِ من جانب آخر ولا يشقّ بينهما.

وإذا صادفَ الشيخ في طريقه بدأه بالسلام، ويقصده بالسلام منه ويتقدم عليه ثمَّ يسلِّم، ولا يشير عليه ابتداءً بالأخذ في طريقٍ حتَّى يستشيره، ويتأدَّب فيما يستشيرهُ فيه الشيخُ بالردِّ إلى رأيه.

ولا يقول لما رآه الشيخُ وكان خطأ: هذا خطأ، ولا هذا ليس برأي، بل يحسن خطابه في الردِّ إلى

الصواب، كقوله: يظهـر أن المصلحة في كـذا، ولا يقول: الرأي عندي كذا، وشبه ذلك»[1].

(1) تـذكـرة السـامـع والمتكلم. ص ١٠١ ـ ١١٢. بتصـرف وحذف.

٩

مُرَاعَاةُ الآدابِ مَعَ الكُتُب

الكتبُ هي آلةُ العلمِ، وقد كان السلفُ رضوان الله عليهم يراعون الأدب مع الكتب مراعاةً تامَّةً، ويَجِدُّون في تحصيلها ما وسعهم الجِدُّ.

«وينبغي لطالبِ العلمِ أن يعتني بتحصيل الكتب المحتاج إليها ما أمكنه شراءً وإلَّا فإجارة أو عاريةً: لأنَّها آلةُ التحصيل، ولا يجعل تحصيلها وكثرتها حَظَّه من العلم، وجمعها حظه من الفهم، كما يفعله كثير من المنتحلين للفقه والحديث، وقد أحسن القائل:

إذَا لَمْ تكنْ حَافِظاً وَاعِياً
فجَمْعُك للكُتْبِ لاَ يَنفَعُ

ويُستحبُّ إعارةِ الكتب لمن لا ضرر عليه فيها ممَّن

لا ضررَ منه بها وكره قوْم عاريتها، والأولُ أولى لما فيه من الإعانة على العلم، مع ما في مطلب العارية من الفضلِ والأجْرِ.

وينبغي للمستعير أن يشكر للمعير ويُجَزِّيه خيراً، ولا يطيلُ مقامه عنده من غير حاجةٍ، بل يردُّه إذا قضى حاجته ولا يحبسه إذا طلبه المالكُ أو استغنى عنه، ولا يجوز أن يصلحه بغير إذن صاحبه، ولا يُحَشِّيه(١) ولا يكتب شيئاً في بياض فواتحه أو خواتمه إلَّا إذا علم رضا صاحبه، ولا يعيره غيره، ولا يودعه لغير ضرورةٍ، وإذا نسخ منه بإذن صاحبه فلا يكتب منه والقرطاسُ في بطنه أو على كتابته، ولا يضع المحبرة عليه، ولا يمرُّ بالقلمِ الممدودِ فوق كتابته»(٢).

وأخرج الخطيب رحمه الله بسنده عن وكيع رحمه الله قال: أوَّلُ بَركَة الحدِيث إعارةُ الكتب.

---

(١) يُحشِّيه: أي يكتب في حواشيه.

(٢) تذكرة السامع والمتكلم. ص ١٦٤ - ١٦٩.

وعن سفيان الثوري رحمه الله قال: من بخِل بعلمه ابتُلي بثلاثٍ، إمَّا أن ينساه ولا يحفظ، وإمَّا أن يموت ولا ينتفع به، وإمَّا أن تذهب كُتُبه.

ويكره للمستعير حبسُ الكتبِ المستعارة عن أصحابها، وعليه أن يُعجِّل بردِّها إلى أربابها.

أخرج الخطيب رحمه الله بسنده عن يونس عن يزيد قال: قال لي الزهريُّ: يا يونسُ، إياك وغُلُول الكتب، قال: قلت: وما غُلُولُ الكتب؟ قال: حبسها عن أصحابها.

وعن الفُضَيل بن عِياضٍ رحمه الله قال: ليس من فِعْل أهل الوَرَع، ولا من فعَالِ العلماءِ أن تأخذ سماعَ رجلٍ وكتابَهُ، فتحبسه عليه، ومَنْ فعل ذلك فقد ظلم نفسه.

وقال الخطيب رحمه الله: ولأجْل حَبْس الكتب امتنعَ غيرُ واحدٍ من إعارتها، فعن سفيان رحمه الله قال: لا تُعرِ أحداً كتاباً.

وعن الربيع بن سليمان قال: كتبَ إليَّ البُويْطيُّ: احفظ كتبك، فإنَّه إن ذهب لك كتابٌ لم تجِد بَدَلَه»[1].

«وإذا نَسَخَ من الكتابِ أو طالعه فلا يضعه على الأرض مفروشاً منشوراً بل يجعله بين كتابين أو شيئين أو كرسيٍّ الكتبِ المعروفِ؛ كيلا يسرع تقطيع حبله، وإذا وضعها في مكانٍ مصفوفةً فلتكن على كرسيٍّ أو تَخْتِ خشبٍ أو نحوه، والأَوْلَى أن يكون بينه وبين الأرض خلوٌّ، ولا يضعها على الأرض كي لا تتندَّى أو تبلىٰ.

وإذا وضعها على خشبٍ ونحوه جعل فوقها أو تحتها ما يمنع تآكل جلودها به، وكذلك يجعل بينها وبين ما يصادفها أو يسندها من حائطٍ أو غيره.

ويراعى الأدبَ في وَضْعِ الكتب باعتبار علومها وشرفها ومصَنِّفِيها وجلالتهم؛ فيضع الأشرف أعلى

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع. جـ ١ ص ٢٤٢.

الكلِّ ثمَّ يراعي التدريجِ، فإن كان فيها المصحفُ الكريم جعله أعلى الكلِّ، الأوْلَى أن يكون في خريطةٍ ذات عروةٍ في مسمارٍ في حائطٍ طاهرٍ نظيفٍ في صدر المجلس، ثمَّ كتب الحديث الصرف كصحيح البخاري وصحيح مسلم، ثمَّ تفسير القرآن، ثمَّ تفسير الحديث، ثمَّ أصول الدين، ثمَّ أصول الفقه، ثمَّ الفقه، ثمَّ النحو والصرف، ثمَّ أشعار العرب. ثمَّ العَرُوض.

فإذا استوى كتابان في فنٍّ أعْلَى أكثرهما قرآناً أو حديثاً، فإن استويا فبجلالِة المصنِّفِ، فإن استويا فأقدمهما كتابةً وأكثرهما وقوعاً في أيدي العلماء والصالحين، فإن استويا فأصحُّهما.

• وإذا استعار كتاباً فينبغي له أن يتفقّده عند إرادة أخذه وردِّه، وإذا اشترى كتاباً تعهَّد أوله وآخره ووسطه وترتيب أبوابه وكراريسه، ويصفح أوراقه، واعتبر صحَّته بما يغلب على الظنِّ صحَّته إذا ضاقَ الزمانُ عن تفتيشه.

وإذا نَسَخَ شيئاً بدأه بكتابة ـ بسم الله الرحمٰن الرحيم ـ فإن كان الكتابُ مبدوءاً فيه بخطبةٍ تتضمَّنَ حمدَ الله تعالى والصلاةَ على رسوله كتبها بعد البسملة، وإلا كتب هو ذلك بعدها، ثمَّ كتب ما في الكتاب، وكذلك يفعل في خَتْمِ الكتابِ.

وكلَّما كتب اسمَ الله تعالى أتبعه بالتعظيم مثل: تعالى أو سبحانه أو عزَّ وجلَّ أو تَقَدَّس أو نحو ذلك.

وكلَّما كتب اسم النبيِّ ﷺ كتب بعده الصلاةَ والسلامَ عليه، ويصلِّي هو عليه بلسانه أيضاً، وجَرَتْ عادةُ السَّلَفِ والخَلَفِ بكتابةِ ﷺ، ولا تُختصر الصلاةُ في الكتاب ولو وقعت في السطرِ مِراراً كما يفعل بعضُ المُحَرِّرين المتخلِّفين؛ فيكتب «صلع» أو «صلم» أو «صلعم» وكلُّ ذلك غير لَيِّقٍ بحقِّه ﷺ.

وإذا مَرَّ بِذكْرِ الصحابيِّ، ولا سيَّما الأكابر منهم كتب رضي الله عنه، ولا يكتب الصلاة والسلام لأحدٍ غير الأنبياء والملائكة إلَّا تبعاً له.

وكلَّما مرَّ بِذكْرِ أحدٍ من السلف فعلَ ذلك أو كتب رحمه الله، ولا سيِّما الأئمة الأعلام وهداة الإسلام رحمهم الله تعالى.

ولا بأس بكتابة الحواشي والفوائد والتنبيهات المهمَّة على حواشي كتاب يملكه، ولا يكتب إلَّا الفوائد المهمَّة المتعلِّقة بذلك الكتاب، مثل تنبيهٍ على إشكالٍ أو احترازٍ أو رمزٍ أو خطأ ونحو ذلك.

ولا يسَوِّد الكتاب بنقل المسائل والفروع الغريبة، ولا يكثر الحواشي كثرة تُظلم الكتاب، أو تضيع مواضعها علىٰ طالبها.

ولا ينبغي الكتابةُ بين الأسطر، وقد فعله بعضهم بين الأسطر المفَرَّقة بالحُمرةِ وغيرها، وترك ذلك أَوْلَى مطلقاً»(١).

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم. ص ١٧٠.

١٠

آدابُ طَالِبِ الْعِلْمِ عِنْدَ دَرْسِهِ

«على طالبِ العلمِ أن يُبَكِّر بـالخروج في طلب العلمِ ، وقـد كـان السلفُ رحمهم الله يفعلون ذلـك ويواظبون عليه، فعن عبدالله بن أحمد بن حنبل قال: سمعت أبي يقـول: «كنتُ ربَّمـا أردتُ البكـورَ إلى الحديث، فتأخذ أمي ثيابي وتقول: حتى يُؤَذِّنَ النَّاسُ، وحتى يصبحوا، وكنتُ ربَّما بكـرتُ إلى مجلس أبي بكر بن عَيَّاش وغيره»[١].

«وعليه أن يدخل في الدرس بكامل الهِمَّةِ، فارغ القلبِ مِن الشـواغل، فيسلِّم على الحـاضـرين كلِّهم بصوتٍ يُسمعهم، ويخصُّ الشيخَ بزيادةِ إكرام.

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع. جـ ١ ص ١٥١.

ثمَّ يجلس حيث انتهى بـه المجلسُ ولا يتخطّىٰ رقابَ أصحابه إلَّا أن يصرِّح له الشيخ أو الحاضرون بالتقدُّم أو التخطِّي، فقد روى البخاري بسنده عن أبي وَاقدٍ اللّيثِّي رضي الله عنه أن رَسُولَ الله ﷺ: «**بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ والنَّاسُ مَعَهُ إذْ أقْبَـلَ ثَلاَثَـةُ نَفَرٍ، فـأقْبلَ اثْنَـانِ إلى رَسُول الله ﷺ وَذَهَبَ وَاحِـدٌ. قَالَ: فَوَقَفَا عَلَى رَسُول الله ﷺ، فأمَّا أحَدُهُمَا فرَأى فُرْجَةً في الْحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيْهَا، وأمَّا الآخرُ فَجَلَس خلْفَهُمْ، وأمَّا الثَّالثُ فَأدْبَرَ ذَاهِباً. فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ الله ﷺ قال: ألا أخبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلاَثَةِ؟ أمَّا أَحَدُهُمْ فَـأوَى إلَى اللَّه فآوَاهُ اللَّهُ، وَأمَّا الآخرُ فاسْتَحيا فاسْتَحْيا اللَّهُ مِنْهُ وَأمَّـا الآخرُ فأعْرَضَ فَأعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ**»[1].

ولا يقيم أحداً من مجلسه، فإن آثره غيره بمجلسه لم يأخذه إلَّا أن يكون في ذلك مصلحةٌ للحاضرين بأن يكون في ذلك فائدة لهم.

---

(١) فتح الباري. جـ ١ ص ١٨٨.

ولا يجلس وسط الحلقة إلّا لضرورةٍ، ولا بين صاحبين إلّا برضاهما، ويحرص على القرب من الشيخ بدون أذى أحدٍ ليفهم كلامه فهماً كاملاً.

ويتأدَّب مع رفقته وحاضِري المجلس، فإنَّ تأدُّبه معهم تأدُّبٌ مع أستاذه واحترام لمجلسه، فلمجلس الدرسِ حريمٌ مقدَّسٌ لا يجوز انتهاكه.

ويجلس بأدبٍ وتواضعٍ جلوسَ المتعلمين لا جلوس المعلِّمين، ولا يرفع صوته كثيراً من غير حاجةٍ، بل يُقبل على أستاذه مستمعاً إليه، فلا يسبقه إلى شرحِ مسألةٍ أو جوابِ سؤالٍ.

ويبدأ درسه ببسم الله الرحمٰن الرحيم، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله وآله وأصحابه الكرام، ثمَّ الدعاء للعلماء، ومشائخه ووالديه وسائر المسلمين.

وينبغي له أن يلاحظ أحوال شيخه، فلا يقرأ عند

اشتغال قلبه بشيءٍ، أو عند ملله وغمِّه ونعاسه، ولا يلحَّ في السؤال بل يتلطّف فيه، ولا يسأله عن شيء في غير موضعه، لكنَّه لا يستحي من الأسئلةِ النافعة في أوقاتها.

وإذا قال له الشيخُ: هل فهمت؟ فلا يقل: نعم، إلَّا وهو فاهمٌ، ولا يستحي من قوله: لا أدري، أو لا أفهم. «قال مجاهد، لا يَتَعَلَّمُ العِلْمَ مُسْتَحي ولا مُسْتَكْبِرٌ. وقالت عائشةُ رضي اللَّهُ عنها: **«نِعْمَ النِّسَاءُ نساءُ الأنصارِ، لم يَمْنَعْهُنَّ الحَيَاءُ أنْ يَتَفَقَّهْنَ في الدِّين»**[1]. وقال الخليل بن أحمد رحمه الله: منزلة الجهلِ بين الحياء والأنفة»[2].

وبعد. فهذا ما مَنَّ اللَّهُ به من بيانٍ لآداب طالبِ العلمِ، فينبغي لطالبِه أن يجعلها أوَّلَ ما يعقدُ عليه الخنصر، وأن يتزيَّنَ بها ظاهراً وباطناً، وأن يجعل

---

(١) فتح الباري. جـ١ ص ٢٧٦.

(٢) آداب المتعلم والعالم. ص ٥٩.

السعي في اكتسابها وتحصيلها هجِّيراه وديدنه،
وأسأل الله تعالى مسألة عبدٍ ذليلٍ، وشَّحَهُ الذنبُ، ولَفَّه
التقصيرُ، وأعيته الحيلةُ، أنْ يجعل هذه الآدابَ حظَّ
كلِّ طالبِ علمٍ أخْلَصَ لله نيَّته، ونقَّى لله طَوِيَّته،
وأسأله سبحانه بجلاله ونورِ وجهه مسألَة مُسَيْكينٍ خائفٍ
ضعيفٍ، أن يهدي المسلمين إلى الأخذِ بكتابه وسنَّةِ
نبيه ﷺ أخذاً لا يدَعُ لبدعةٍ قياماً ولا لشركٍ وجوداً، إنَّه
وَليُّ ذلك وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

سبحانك اللَّهمَّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا
أنت، أستغفرك وأتوبُ إليك.

والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، وصلَّى الله
على نبيِّنا محمدٍ وآله وأصحابه وسلَّم تسليماً كثيراً،
وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

وكتب

أبو عبدالله

محمد بن سعيد بن رسلان

عفا اللهُ عنه وعن والديه

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ آداب المتعلم والعالم [مقدمة كتاب «أيها الولد» للغزّالي]، الأستاذ علي محيي الدين القره داغي، دار الاعتصام، طبعة ١٤٠٣ هـ.

٣ ـ أحكام الجنائز وبدعها، العلاّمة محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣ هـ.

٤ ـ إحياء علوم الدين، الشيخ أبو حامد الغزّالي، دار إحياء الكتب العربية، بدون تاريخ.

٥ ـ إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين، للإمام شمس الدين بن القيم، مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة، طبعة ١٣٨٨ هـ.

٦ ـ البداية والنهاية، الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير، دار الريان للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ.

٧ ـ تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين، الإمام محمد بن علي الشوكاني، مكتبة الدعوة الإسلامية، بدون تاريخ.

٨ ـ تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، الشيخ العلامة ابن جماعة الكناني، دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.

٩ ـ ترجمة الإمام أحمد [من تاريخ الذهبي]، دار الوعي بحلب، بدون تاريخ.

١٠ ـ تعليم المتعلم طريق التعلم، الإمام برهان الإسلام الزرنوجي، دار إحياء الكتب العربية بمصر، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.

١١ ـ تفسير سورة الإخلاص، شيخ الإسلام ابن تيمية، نشرة الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي، مكتبة صبيح، بدون تاريخ.

١٢ ـ تفسير القرآن العظيم، الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير، مكتبة التراث الإسلامي بحلب، طبعة ١٤٠٠ هـ.

١٣ ـ تلبيس إبليس، الإمام أبو الفرج ابن الجوزي، طبعة شباب الأزهر، ١٤٠٠ هـ.

١٤ ـ تهذيب إحياء علوم الدين، العلامة عبدالسلام محمد هارون، نشر دار سعد مصر للطباعة والنشر بالقاهرة، بدون تاريخ.

١٥ ـ تيسير العزيز الحميد، الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٣٩٧ هـ.

١٦ ـ تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان، العلامة عبدالرحمٰن بن ناصر السعدي، دار الكتب السلفية، بدون تاريخ.

١٧ ـ جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، الإمام أبو عمر يوسف بن عبدالبر، دار الكتب الحديثة بالقاهرة، بدون تاريخ.

١٨ ـ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الإمام أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تحقيق الدكتور محمود الطحان، دار المعارف بالرياض، طبعة أولى ١٤٠٣ هـ.

١٩ ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، الإمام ابن القيم، المكتبة السلفية بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٣٩٧ هـ.

٢٠ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة، العلامة محمد ناصر الدين الألباني، طبعة المكتب الإسلامي.

٢١ ـ شرح السنة، الإمام الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط والأستاذ زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط. ثانية ١٤٠٣ هـ.

٢٢ ـ شرح المرزوقي على ديوان الحماسة، لأبي علي أحمد بن محمد المرزوقي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، تحقيق عبدالسلام هارون وأحمد أمين، ١٣٨٧ هـ.

٢٣ ـ شرح النووي على صحيح مسلم، الإمام محيي الدين أبو زكريا يحيي بن شرف النووي، المطبعة المصرية، بدون تاريخ.

٢٤ ـ الصمت وآداب اللسان، الإمام ابن أبي الدنيا، دار الغرب الإسلامي، تحقيق الأستاذ نجم عبدالرحمن خلف، ط. أولى ١٤٠٦ هـ.

٢٥ ـ غاية الأماني في الرد على النبهاني، الإمام محمود شكري الألوسي، دار إحياء السنة النبوية، بدون تاريخ.

٢٦ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الإمام الحافظ أحمد بن حجر، المطبعة السلفية بمصر، الطبعة الثانية، ١٤٠٠ هـ.

٢٧ ـ الفقيه والمتفقه، للحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، مكتبة أنس بن مالك، ١٤٠٠ هـ.

٢٨ ـ الفوائد، الإمام العلامة ابن القيم، مكتبة الجامعة، ط. ثالثة ١٣٩٦ هـ.

٢٩ ـ لباب الآداب، الأمير أسامة بن منقذ، تحقيق العلامة أحمد محمد شاكر، دار الكتب السلفية، ١٤٠٧ هـ.

٣٠ ـ لسان العرب، الإمام أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار المعارف بمصر.

٣١ ـ المجموع شرح المهذب، للإمام محيي الدين أبي زكريا يحيي بن شرف النووي نشرة الشيخ محمد نجيب المطيعي.

٣٢ ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب الشيخ عبدالرحمٰن بن محمد بن قاسم وولده محمد، مكتبة ابن تيمية، بدون تاريخ.

٣٣ ـ مختصر الشمائل المحمدية، للإمام الترمذي، اختصار الشيخ ناصرالدين الألباني، المكتبة الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ.

٣٤ ـ مختصر منهاج القاصدين، اختصار العلامة ابن قدامة، مكتبة شباب الأزهر، بدون تاريخ.

٣٥ ـ مدارج السالكين، للإمام ابن القيم، تحقيق الشيخ محمد حامد الفقي، مطبعة دار السنة المحمدية، بدون تاريخ.

٣٦ ـ مشكاة المصابيح، للإمام محمد بن عبدالله الخطيب التبريزي، تحقيق الشيخ الألباني، المكتب الإسلامي، ط. ثالثة ١٤٠٥ هـ.

٣٧ ـ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، الإمام شمس الدين ابن القيم، مكتبة الفاروق الحديثة، بدون تاريخ.

٣٨ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، الإمام مجدالدين محمدالجزري ابن الأثير، تحقيق الأستاذين طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية ببيروت.

٣٩ ـ الوابل الصيب، للإمام ابن القيم، طبعة المكتبة السلَفية بمصر.

الفهرس